الأنظار اللسانية في مقدمة ابن خلدون

إعداد

فيروز حسني درويش هارون

المشرف

د. عبدالله عنبر

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ .....

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الماجستير في

اللغة العربية

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

آيار ، ٢٠٠١م

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٧ / ٥ / ٢٠٠١م

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
الدكتور عبدالله عنبر أستاذ مشارك في اللغة والنحو	رئيسا	.....
الأستاذ الدكتور نهاد الموسى أستاذ النحو العربي	عضوا	.....
الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي أستاذ البلاغة العربية والنقد	عضوا	.....
الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس أستاذ في البلاغة والنقد	عضوا	.....

الإهداء

إلى كلّ محبي العلم
إلى كل المجاهدين
إلى روحة الحنان التي نهلت العزم من عزمها
رمز المحبة والرحمة
أمي

فيروز

الشكـر

لله الشكر من قبل ومن بعد

لم يحتر قلمي عندما قررت توجيه شكري وإظهار عظيم امتناني لامتلائي بشعور الشكر والعرفان لأستاذي المشرف الدكتور: عبدالله عنبر الذي كان يمدني بعزيمة متوقدة وشوق معرفي متجدد، أشكره لملاحظه المغنية لرسالتي وأشكره لروح الأخوة التي منحني إياها.

ولا يفوتني توجيه الشكر للأستاذ الدكتور نهاد الموسى والأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي والأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس، الذين تكرموا بقبول مناقشة رسالتي، وأشكرهم على صبرهم في قراءتها وتزويدها بالملاحظات المغنية لها رغبة في تقويم مسارها.

ولا يمكنني تجاهل الدفء الكبير والتأييد الطويل الذي أشعرتني به عائلتي لمواصلة هذا العمل وإتمامه.

وأشكر أصدقائي وزملائي وكل من مد لي يداً معاونةً لإنجاز هذه الرسالة.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة.....	ب
الإهداء.....	ج
الشكر.....	د
فهرس المحتويات.....	هـ
ملخص باللغة العربية.....	ز
المقدمة.....	١
الفصل الأول	
أولا: النحو والإعراب	
أ- النحو عند القدماء.....	٧
ب- النحو عند ابن خلدون.....	١٢
ج- الإعراب (لغة واصطلاحا).....	١٨
د- الإعراب عند ابن خلدون.....	٢١
ثانيا: الحركات الإعرابية	
أ- دور الحركات الإعرابية عند النحاة القدماء.....	٢٦
ب- الحركات الإعرابية عند ابن خلدون.....	٢٨
ثالثا: نظرية القرائن النحوية	
أ- القرائن النحوية عند النحاة القدماء.....	٣٥
ب- القرائن النحوية عند ابن خلدون.....	٣٧
ج- القرائن النحوية في نظر اللسانيين المعاصرين.....	٤٢
الفصل الثاني	
أولا: اللغة	
أ- اللغة (لغة واصطلاحا).....	٤٥
ب- مفهوم اللغة عند ابن خلدون.....	٤٧
ثانيا: علم اللغة وفقه اللغة	
أ- موقف علماء اللغة العرب من علم اللغة وفقه اللغة.....	٥٥

الموضوع	الصفحة
ب- وجهة نظر ابن خلدون من علم اللغة وفقه اللغة.....	٥٦
ج- موقف اللسانيين المعاصرين من علم اللغة وفقه اللغة.....	٥٩
ثالثا: علم الأصوات اللغوية	
أ- علم الأصوات والعلماء العرب.....	٦٤
ب- ابن خلدون وعلم الأصوات.....	٧٢
رابعا: الملكة	
أ- الملكة عند بعض علماء العربية.....	٨٢
ب- مفهوم الملكة عند ابن خلدون.....	٨٤
جـ- الملكة اللغوية مغايرة لصناعة العربية وقواعدها.....	٨٧
د- القواعد عند ابن خلدون وسيلة لتعليم اللغة.....	٩٣
هـ- اللغة ملكة صناعية.....	٩٦
و- تحصيل الملكة اللغوية وتعلمها.....	١٠١
الفصل الثالث	
أولا: البلاغة والأسلوبية	
أ- مفهوم البلاغة بين القدماء والمعاصرين.....	١١٠
ب- البلاغة وسياق الحال عند ابن خلدون.....	١١٣
جـ- مفهوم الأسلوب عند القدماء.....	١٢٦
د- الأسلوب عند ابن خلدون.....	١٢٩
ثانيا: قضايا نقدية	
أ- اللفظ والمعنى عند النقاد القدماء.....	١٣٩
ب- اللفظ والمعنى عند ابن خلدون.....	١٤٩
جـ- الطبع والصنعة عند النقاد القدماء.....	١٥٢
د- الطبع والصنعة عند ابن خلدون.....	١٥٦
الخاتمة	١٦١
المصادر والمراجع.....	١٦٣
الملخص باللغة الإنجليزية.....	١٩١

إلى المستوى الذي تتطلع إليه.

وتكشف قراءة الفكر اللغوي الخلدوني أنه ينتظم ضمن المحاور الآتية:-

أولا: عرضَ العلاقة بين الإعراب والنحو، موضحا أثر نظرية العلاقات في تفسير الظاهرة اللغوية، وكشفَ عن أهمية نظرية القرائن في تفسير الظاهرة اللغوية وأظهرَ أثر علاقة الإعراب في تشكيل المعنى.

ثانيا: عرّف اللغة تعريفا وافيا ينتظم جملة المستويات التي تتشاكل عليها، وفرقَ بين علم اللغة وفقه اللغة في ضوء المضمون الكلي لكل منهما، ودرسَ علم الأصوات كاشفا عن سمات أصوات العربية ومخارجها وموضحا الفرق بين الصوت المنطوق والحرف المكتوب.

ثالثا: أفرد مكانا ظاهرا للملكة اللسانية وأظهر أنها صفة راسخة للنفس البشرية محصلة عن طريق التكرار وطول المران، وفرقَ بين الملكة اللغوية وقواعد العربية وتوصل إلى نتيجة مفادها أن قواعد العربية لا تشكل شرطا لتحصيل ملكتها.

رابعا: عرفَ البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وكشفَ عن مفهوم الأسلوب وبينَ أحواله في النظم والنثر، فعده المنوال المحتذى أو النسق المتبع.

خامسا: أبان عن قضيتين شغل بهما النقد العربي:-

أ- اللفظ والمعنى: إذ نظر إليهما على أنهما يشكلان نسقا واحدا في تأسيس النص.

ب- الطبع والصنعة: بين جمال الطبع، وعين القدر المستساغ من الصنعة.

الملخص

الأنظار اللسانية في مقدمة ابن خلدون

إعداد الطالبة

فيروز حسني هارون

بإشراف

الدكتور عبدالله عنبر

تعددت تآليف ابن خلدون في التاريخ والاجتماع والاقتصاد والحساب، فكان ذا ثقافة واسعة دفعت الدارسين إلى اكتناه هذه الشخصية للإحاطة بالأنساق الفكرية التي صدر عنها، ومن هنا تعددت الدراسات التي بحثت إنتاج ابن خلدون تحليلا ومقارنة وقراءة لأنظاره.

وقد سطع نجم ابن خلدون على المستوى الاجتماعي بوجه خاص وتفطن العلماء للإشارة إلى أنظاره في بقية المجالات، ويقرأ هذا البحث الأنظار اللغوية لوضعها في المكان الذي يليق بها في ضوء الأنظار اللسانية المعاصرة، التي تتفرس الظاهرة اللغوية من وجوهها المختلفة، وتبنى هذه الدراسة على محورين أساسيين:-

الأول: تأصيل الأنظار اللسانية التي توصل إليها ابن خلدون في ضوء الأنظار القديمة لمعرفة الدور الذي تحتله هذه الأنظار في ضوء التطور التاريخي.

الثاني: مقاربة أنظار ابن خلدون اللغوية في ضوء الأنظار اللسانية الحديثة، لوضع هذه الأنظار في السياق اللساني الذي يليق بها ويكفل لها الارتقاء في الوعي اللساني

المقدمة:

قدم ابن خلدون للمكتبة العربية مجموعة من المؤلفات التي تضمنت مواضيع مختلفة، ومن مؤلفاته:- (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر) ومنه (المقدمة)، وله كتاب (شرح البردة) و (الحساب) و (رسالة في المنطق).

فقد كان لذلك أشبه بموسوعة علمية، إذا استطاع الإحاطة بعلوم عصره دراسة وتطبيقا وتأسيسا، فأدى ذلك إلى اختلاف الدراسات حول معارفه، لأن عالم الاجتماع يجده اجتماعيا، والمتخصص في الاقتصاد يجده اقتصاديا، والمؤرخ يراه عالما بتاريخ الأمم المختلفة، وعالم اللغة والأدب يراه نحويا وبلاغيا وناقدا ولسانيا.

وتقرأ اللسانيات الحديثة الظاهرة اللغوية من وجوهها المختلفة مظهرة مستوياتها السطحية والعميقة، وتنتظم هذه اللسانيات ضمن عدد من المنهجيات التي تتناسب في تقديمها استراتيجيات متعددة تسهم في جلاء مكونات الظاهرة اللغوية من حيث مستوياتها النحوية والصرفية والصوتية والبيانية والبلاغية، وتأتي هذه الدراسة استجابة لتوظيف الأنظار اللسانية توظيفا منهجيا يؤسس لوضع نظرية ابن خلدون في المكان الذي ينبغي أن تكون فيه، وقد عرضت الدراسات اللسانية الحديثة لمظاهر في نظرية ابن خلدون ولا سيما الملكة اللسانية واللغة.

ولاحظت أن جملة الأبواب التي وردت في مقدمة ابن خلدون لم تخص بدراسة وافية تعرض للمنظومات الفكرية التي تنتظمها فأردت أن أخصص هذه الأبواب بدراسة خاصة لإظهار ما تفصح عنه من تأصيل لعلوم العربية واستدراك لما فات العلماء قبله.

والملاحظ أن الأنظار الخلدونية اختُزلت ولم تحظ بالعناية اللائقة بـها وتلخصت الكتب المطبوعة التي تناولت جوانب من الفكر اللغوي عند ابن خلدون بما يلي:-

- محمد عيد الذي تعرض في كتابه (في اللغة ودراستها) لمنهج ابن خلدون في فهم اللغة والملكة اللسانية عنده، وأعاد كثيرا من آراءه ذاتها في كتابه (الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون) مع تركيز على الملكة اللسانية بجوانبها المختلفة كتحصيلها للأجانب وأهل الأمصار، وأثر الاختلاط والعزلة على صحة اللغة وفسادها.

- ميشال زكريا وتناول في كتابه (قضايا ألسنية تطبيقية) تعريف ابن خلدون للغة، وأفرد كتاب (الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون) للحديث عن الملكة اللسانية عند ابن خلدون وقصره عليها.

أما الدوريات التي تعرضت لجوانب من الدرس اللغوي عند ابن خلدون، فكان منها ما قدمه كل من:-

- سالم علوي في البحث الذي حمل عنوان (ابن خلدون وعلوم اللسان) وفيه يقدم عرضا موجزا للأركان الأربع التي اعتمدها ابن خلدون في حديثه عن اللسان العربي وهي (اللغة والنحو والبيان والأدب).

- الطيب البكوش وذكر في بحث (العلاقات بين الألسن ومستوياتها في التراث العربي) مقياس الإيجاز الذي اعتمده ابن خلدون في تفضيل العربية على غيرها من الألسن وناقش هذا الرأي.

- عبد القادر المهيري وركز في بحث له باسم (ابن خلدون وعلوم اللسان) على إيضـــاح التفريق الذي قدمه ابن خلدون بين مصطلحي اللغة واللسان.

وبناء عليه أردت من هذه الدراسة تحقيق الأهداف الآتية:-

أولا: دراسة الأنظار التي وردت في مقدمة ابن خلدون للإبانة عن الأصول الفكرية التـــي يصدر عنها في قراءة الظاهرة اللغوية وبيان المرجعيات التي تعـــود إليـــها هـــذه الأنظار الملاحظة دورَ الفكر الخلدوني في استثمار ما تقدمه مـــن آراء وتوضيـــح مستوى النضج الفكري الذي بلغته هذه الآراء على يد ابن خلدون.

ثانيا: كشف المفاهيم التي انتظمت خطة عمله المنهجي في تفسير الظواهر اللغوية ومقارنة هذه المفاهيم بما يقدمه المنجز اللساني الحديث لإظهار الموقع الـــذي تحتلـــه هـــذه الأنظار في الدراسات اللسانية الحديثة.

ثالثا: امتحان جملة المنهجيات الفكرية التي استند إليها ابن خلدون لوضع هذه المنـــهجيات في سياقها المناسب من التحليل اللساني، ويتحقق هذا المطلب بدراسة الأنظار التـــي وردت في المقدمة دراسة وافية تكشف عن ملاحظ النظر المختلفة التي انتظمت هذه الأبواب.

الفصل الأول

أولا: النحو والإعراب

عُرف عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون[١] بأنظاره الراسخة في الفلسفة والتاريخ والاجتماع وعلوم اللسان العربي، وانصب اهتمامه في سياق اللسان العربي على تبيان سمات هذا اللسان ومميزاته النحوية والبيانية والصوتية، وقد رصد التحولات التي تكتنف هذا اللسان في بنيته الأصلية، وهكذا تبين الأسباب التي أفضت إلى هذه التغيرات، ومن الملاحظ أنه عرض لأعلام تلك الفنون المعرفية موضحا ما تميزوا به من محاسن وناقدا لما وقعوا فيه من الأخطاء.

وقسم علم اللسان إلى أربعة أقسام جاءت على النحو الآتي:-

"اللغة، النحو، البيان، الأدب"[٢]، وعرّف بهذه العلوم موضحا صلتها باللسان العربي ومظهرا العلاقات المتراسلة بينها.

ويقرر ابن خلدون أن إدراك هذه المعارف يمثل مطلبا ضروريا لأهل الشريعة فيقول: "ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرْح مشكلاتها من لغتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة"[٣].

---

(١) "هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (أبو زيد) ولد سنة ٧٣٢هـ - وتوفي سنة ٨٠٨هـ، أصله من إشبيلية، ومولده ونشأته بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس ومصر، كان فصيحا جميل الصورة عاقلا، صادق اللهجة، عزوفا عن الضيم، من أشهر كتبه (العبر) و (المقدمة) التي ختمها بـ (التعريف بابن خلدون)، وله (شرح البردة) و (الحساب) و (رسالة في المنطق)، و (شفاء السائل لتهذيب المسائل) توفي فجأة في القاهرة".

ينظر: ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص٢-٤.

خير الدين الزركلي، الأعلام، ج١، ص٢٩٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٥٤.

ويمكننا ربط هذا التوجه برأيه حول دافع نشأة النحو ومفاده أن القرآن الكريم هو الباعث الأول لاستنباط علوم اللسان حتى لا ينغلق على الفهم ولا يصبح المسلمون جاهلين به وبالحديث فيقول: "وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على الفهوم"(١).

فكأننا بابن خلدون وهو يؤكد على ذلك يلمح إلى أن الجديد في تاريخ علوم اللسان العربي تناولها اللغة بالدرس والتمحيص، لا لتمكين متكلميها من التفاهم والتواصل فحسب، بل لتضمن لهم وسائل التخاطب مع مصدر دينهم ومنطلق ثقافتهم وهو القرآن.

وعندما أراد ابن خلدون البدء بدراسة علوم اللسان قدم النحو عليها لأهميته في إدراك المعاني وفهمها، إذ يشكل الطريقة لفهم هذه العلوم فيقول: "والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة".(٢)

ويلتقي هذا النص في كثير من جوانبه مع ملامح من الدرس اللساني، إذ بقوله أصول المقاصد بالدلالة إشارة إلى المستوى الدلالي وأثر المعاني النحوية في تكوينه وبهذا يتصل النحو عنده بأصل الإفادة أي الدلالة على المعنى المراد.

وهنا ينقلنا ابن خلدون نقلة علمية أخرى أكدتها اللسانيات المعاصرة مفادها أن اللسان يتطور بشكل سريع في معانيه ومبانيه؛ لأنه عرضة لأحداث الخطاب المتكررة

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٥٤.

في كل وقت، وما العربية إلا واحد من تلك الألسن يتأثر ويؤثر بما يلاقي من الألسن الأمم التي دخلت الإسلام، واتخذت العربية أساسا لها.

النحو عند القدماء

تدرّج مفهوم النحو عبر المراحل الزمنية تدرجا يكشف عن اختلاف المفاهيم التي أطلقت عليه، فقد استخدم مفهوما (العربية) و (علم العربية) للدلالة عليه، فهذا ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) وابن فارس (ت ٣٩٥هـ) يستخدمان مصطلح (العربية) بمعنى النحو عند مناقشتهما لقضية أولية التأليف النحوي فيقولان:

"أول من وضع العربية...."[١].

ويؤكد ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) هذا المنحى بقوله: "أما أبو عمرو بن العلاء فهو العالم المشهور في علم القراءات والعربية"[٢].

---

(١) ابن فارس، الصاحبي، ص١٠.

ابن النديم، الفهرست، ص٨٧.

(٢) ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٣٠.

ويصف ابن الأنباري (ت٥٧٧هـ) كتابه الإنصاف بأنه "أول كتاب صنف في علم العربية"[١].

وقد استخدم ابن خلدون مصطلح "العربية"[٢] ليدل به على النحو وأطلق على القواعد النحوية مصطلحين رديفين هما: (قوانين العربية)[٣] و(القوانين النحوية)[٥].

وتُظهر روايات نشأة النحو أن اللحن يمثل سببا جوهريا أدى إلى تنبه أبي الأسود الدؤلي إلى وضع النحو، وتكشف هذه الروايات عدم تحديد مجال الدراسة النحوية: فالناظر إلى كتاب سيبويه الذي وصفه أبو الطيب اللغوي بأنه "قرآن النحو"[٤] ووصف مؤلفه بأنه أعلم الناس بالنحو بعد الخليل هذا الناظر إلى الكتاب يجده محتويا مجموعة من الدراسات التي تصنف في علم اللغة الحديث في إطار بناء الكلمة وبناء الجملة والأصوات.

ويؤكد التعريف الذي قدمه ابن جني (ت ٣٩٢هـ) للنحو هذا الأمر، إذ يتضمن النحو عنده المجالات التالية: "التثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب"[٥].

---

(١) ابن الأنباري، الانصاف، المقدمة، ص٥.

ينظر للبيان عن مفهوم العربية في الكتب الآتية:

أ- ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص٥.

ب- السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص١٥- ص٢٢.

جـ- عوض حمد القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره، ص٨.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص ١٢٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٢٧٨.

(٤) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص٦٥.

(٥) ابن جني، الخصائص، ج١، ص٣٤.

وعد ابن عصفور (ت٦٦٩هـ) الصرف من "علم العربية"[١] باعتباره متضمنا ما يتعلق ببناء الجملة وبناء الكلمة.

وينتظم النحو عند أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) "معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها"[٢]، ولم يكن مفهوم النحو مستقلا فقد كان "مشتملا على النحو والصرف معا غير أشتات أخرى من الدرس اللغوي"[٣]، ويلتقي مفهوم النحو من الوجهة الاصطلاحية والمفهوم اللغوي له إذ يلاحظ أنه يفيد القصد والأم عند الجمهور[٤].

ثم يقدم ابن جني تعريفا يشتمل جملة القوانين التي تنتظمها الظاهرة اللغوية إذ يتضمن القواعد المتصلة بالنحو والصرف وأنظمة العلاقات، وأدرك فيه قوانين التركيب والعلاقات الجملية، مما يشير إلى فهمه لوظائف النحو العربي إذ يرى أن النحو هو: "انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها، وإنْ لم يكن منهم وإن شذّ بعضهم عنها رد به إليها"[٥].

---

(١) ابن عصفور، الممتع، ج١، ص٣١-٣٤.

(٢) أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، ج١، ص٥١.

(٣) عبده الراجحي، فصول في علم اللغة، ص٣٩.

(٤) ينظر: ابن دريد، الجمهرة، ج٢، ص١٩٧.

ابن منظور، لسان العرب، م٦، ص١٥٥.

التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج٤، ص٢٦١.

(٥) ابن جني، الخصائص، ج١، ص٣٢.

وبين عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) أهمية النحو في الكشف عن دور الإعراب في توضيح المعاني فقال: "إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وإن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه"(١).

ويقرر ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) أن النحو هو: "علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو"(٢).

وتتسع دائرة النحو عند السكاكي (ت ٦٢٦هـ) لتكشف العلاقة القائمة بين النحو والمعنى فيقول هو: "معرفة كيفية التركيب في ما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها، من حيث تلك الكيفية"(٣).

ويؤكد ابن عصفور (ت٦٦٩هـ) أن النحو هو اتباع لأحكام العرب في كلامها حيث يقول: "النحو علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي يأتلف منها فيحتاج من أجل ذلك إلى تبيين حقيقة الكلام وتبيين أجزائه التي يأتلف منها وتبيين أحكامها"(٤).

٥٤٢٣٥١

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ص٣٨.

(٢) ابن الأنباري، الإغراب في جدل الإعراب، ص٩٥.

(٣) السكاكي، المفتاح، ص١٢٥.

(٤) ابن عصفور، المقرب، ج١، ص٤٥.

ويتسرب مفهوم الإعراب والبناء إلى المصطلح النحوي كما حدث مع الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) الذي نظر للنحو نظرة تجمع بين الصرف والإعراب فقال: "هو علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرهما، وقيل: النحو علم يعرف به أحوال الكلمة من حيث الإعلال، وقيل علم بأصول يعرف بها صحة الكلام وفساده"(١).

ويتبع الأشموني (ت ٩٠٠هـ) المنهج ذاته في تعريف النحو فهو عنده "العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي أتتلف منها"(٢).

وأخذ مفهوم النحو بالتضيّق بعد ذلك ليصبح مقتصرا – عند متأخري النحاة – على "أحوال أواخر الكلمة إعرابا وبناء"(٣)، وهذا التعريف يحمل تضيقا لأفق النحو وقصرا له على الحرف الأخير من الكلمة، ويتضمن سمة من سماته وهي الإعراب والبناء.

وهكذا نجد أن مفهوم النحو مر عبر مراحل أسهمت في تشكيله بين العربية أو علم العربية، وضبط مجالاته التي شملت بداية شيئا من التصريف وعلم الأصوات ثم استقر على أنه الانتحاء والاتباع لطريقة العرب في أداء كلامهم، وعد هذا الانتحاء ملمحا مميزا للكلام المستقيم نحويا من غير المستقيم.

---

(١) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص١٠٥.

(٢) الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ص١٩.

(٣) ينظر: محمد السراج، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب، ص١١.
فؤاد حنا ترزي، في أصول اللغة والنحو، ص٩٤.

النحو عند ابن خلدون

من المقرر أن تأليف علوم العربية نشأ في ظل القرآن الذي صدر عنه المسلمون في تنظيم حياتهم، وانطلاقا من هذا الأساس كانت حركتهم نحو فهم هذا النص الكريم واستخراج أحكامه وبيان وجوه إعجازه.

ويشكل النحو مفتاحا لتحليل النصوص عامة، ولهذا استشرف ابن خلدون الدور الذي يؤديه النحو، كما فعل ابن حزم عندما قال: "لا بد لطالب الحقائق من الاطلاع على القرآن... ومطالعة النحو"(١).

ويقدم ابن خلدون تعريفا للنحو بعد تبيان الموجبات الداعية لوضعه وهي: فساد الملكة العربية بسبب مخالطة الأعاجم وقت مغادرة المسلمين للحجاز نشرا للدين الإسلامي فيقول: "فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا، وأمثال ذلك، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو"(٢).

---

(١) سعيد الأفغاني، نظرات في اللغة عند ابن حزم، ص٩.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص ١٢٥٦.

ويؤكد نشأة النحو في ظلال القرآن والحديث غير مرة في مقدمته حيث يقـــول: "وكان القرآن متنزلا به والحديث النبوي منقولا بلغته وهما أصلا الدين والملة، فخشـــي تناسيهما وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلا به، فاحتيج إلى تدوين أحكامـه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه، وصار علما ذا فصول وأبواب ومقدمـــات ومســـائل سماه أهله بعلم النحو وصناعة العربية"(١).

وبيانه للظروف التي فرضت وضع علم النحو ليس بالجديد بل الجديد هو طريقة تعبيره التي ترفعه كما يقول عبد القادر المهيري "من منزلة المكتفي بروايـــة الأخبـــار والأحداث إلى مرتبة المفكر الذي ينفذ إلى ما هو حاسم في سير الأمور وتطورها"(٢).

ومن ذلك إدراكه لما ينتج عن مخالطة الأجناس وتأثر لغاتهم وتأثيرها.

وينتظم نص ابن خلدون مجموعة من الملاحظ التي تكشف الأنساق التي ينبنـــي عليها النحو العربي، وقد جاءت على النحو الآتي:-

أولا: أنه مستنبط من مجاري كلام العرب أي أنه غير مبني على فرضيات ونظريـــات خارجية، بل هو واقع ممارس يمكن ملاحظته، مع الإشارة إلى أن النحو العربـــي الذي سار معياريا كان يحمل في داخله البعد الوصفي للظاهرة اللغوية.

ثانيا: أنه مجموعة من القوانين والقواعد والكليات القابلة لتطبيق الجزئيات داخلها.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٢.

(٢) عبد القادر المهيري، أعلام وآثار من التراث اللغوي، ص ١٤٨.

ثالثا: هدف النحو محاكاة الملكة العربية السليمة لمن لم يدركها بالإضافة إلى تنبيهه في أثناء تأسيسه القاعدة النحوية إلى: "أهمية وصف اللغة واستقراء قوانينها وتحليل الكلام العربي وإبراز قواعده الكلية وعلاقاتها بالدلالة" (١).

ولم يغفل ابن خلدون مسألة الدلالة والإعراب فقد أشار إلى إمكانية تغير المعنى بتغير الحركات الإعرابية وتغير العوامل، كما بين ذلك محمد صلاح الدين فقال:

"إن اهتمام البحث النحوي بالجانب الإعرابي أكثر من الاهتمام بمكونات المعنى النحوي الأخرى التي تشارك الإعراب في بيان المعنى وإزالة الغموض، ولم يكن اهتمام النحاة بالإعراب أكثر من غيره من القرائن الأخرى المشاركة في المعنى النحوي من جهة فكرة العامل وحركة أواخر الكلمات"(٢).

وجدير بالاهتمام أنه تفطن إلى بيان دور ما اصطلح المحدثون على تسميته بالمميز النحوي في إزالة اللبس: "فالمميز النحوي رمز في غاية الإيجاز يحول دون اختلاط المعاني ويمنع الالتباس ويصنف المفردة المضبوطة بالحركة في باب من أبواب النحو"(٣).

فعندما قدم ابن خلدون النحو على غيره علل ذلك قائلا "إذ به يُتبين أصول

---

(١) عبد الله عنبر، نظرية النظم عند العرب في ضوء مناهج التحليل اللساني، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، ١٩٩١، ص١٣٠.

(٢) محمد صلاح الدين، النحو الوصفي، ج١، ص٧٠.

(٣) ريمون طحان، الألسنية العربية، ج٢، ص١٣.

المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجـــهل أصـــل الإفادة".(١)

وبهذا يعرّف الجزء الأول في بنية اللسان العربي بوظيفته الأساسية التي لولاهـا لجهل أصل الإفادة، ويبتعد عن الحدود والقيود التي أعاقت النحو العربي مدة طويلة.

فعلم النحو يدرس التراكيب من حيث وظيفة الصيغ داخل التركيب وهو كما يرى محمد صلاح الدين بكر "لا يهتم بالمعنى الدلالي للصيغ فـــي الـــتركيب ولكنـــه يـــهتم بوظائفها، وظيفة كل باب" (٢).

ويلتقي فهم ابن خلدون للنحو مع آراء الدراسات الحديثة التي تعد مهمة النحـــو كامنة في "البحث في خواص الجملة، ووظائف المفردات من خلالها فالبحث في الجمـــل من حيث تأليفها، وعلاقات كلماتها، ثم وسائل التعبير عن هذه العلاقات من أهم مبـــاحث النحو في العصر الحديث"(٣).

وأدرك ابن خلدون أنّ هناك فرقا بين امتلاك اللغـــة العربيـــة والقـــدرة علـــى استخدامها، ومعرفة صناعة العربية ونحوها فقال "لأنّ صناعة العربية إنّما هي معرفـــة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية، فليست نفس الملكـــة إنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا"(٤).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٤.

(٢) محمد صلاح الدين بكر، المعنى النحوي مفهومه ومكوناته، مجلة الحصاد، ع١، ١٩٨١، ص١٤١.

(٣) ياسر الملاح، النظام النحوي في اللغة العربية، ص٣٣.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٦.

فقد لاحظ المحدثون من الدارسين ومنهم محمد حماسة "أن هناك فرقا بين معرفة القواعد واكتساب الملكة، وإذا تأكد هذا الفرق في كثير من المهارات فإنه أكثر تأكيدا في المهارة اللغوية"(١).

وهذا الفرق بين القواعد اللغوية وملكتها عبّر عنه حسن عون بتقسيمه النحو إلى "نحو فني ونحو علمي"(٢) وقصد بالنحو الفني النحو الفطري في مراحله الأولى، وأراد بالنحو العلمي تلك القواعد والضوابط المقننة لعلم النحو.

وهذا ما يظهره التحويليون في بيانهم أن النحو يتشكل وفق نمطين: "أولهما أن النحو نظام من الأحكام قائم في عقل أهل اللغة، يكتسب في الطفولة المبكرة عادة ويسخر لوضع أمثلة الكلام المنطوق وفهمه، والثاني: أن النحو نظرية يقيمها اللغوي مقترحا بها وصفا لسليقة (Competence) المتلكم"(٣).

ولكن الواقع التطبيقي العملي للغة، وما يقال فعلا لا يعتمد خطوات محددة في العودة إلى القواعد ومحاولة تطبيقها مع سليقة المتكلم اللغوية، لأننا في كلامنا "نعرج في طبقات مستدبرة ثلاث: وسط كلامي مستفيض ترتد كل واحدة من جمله إلى نظام مثال في الدماغ، وكتاب نحوي عريض. ونظرية نحوية تكشف لنا عن أصول الوصف

---

(١) محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية، ص١٣.

(٢) حسن عون، اللغة والنحو، ص٧٨.

(٣) نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، ص٥٣.

والتفسير... ولكن هذه الطبقات تتداح في دوائر متداخلة ولا تتتابع في خـــط مســتقيم فالجمل والعبارات التي يجري بها الاستعمال تشكّل بدءا على محيط الدائرة الأول ولكنها تتصل في مداها بنقطة بدء أخرى هي قواعد يصدر عنها المتكلم وتفضي بنا إلى دائــرة ثانية... هي الأصول النظرية"[١].

وهذه الخطوات المتداخلة والإقرار بوجودها يفضي بنا إلى فهم عميق لعلم اللغــة فليس من مهمته تحديد السليم من الكلام والكشف عن أخطائه بل دراسة اللغة ذاتها، فعلم اللغة ليس من وظيفته تحديد قواعد أو أحكام عامة للتمييز بين الجيــد والــرديء، إنمــا وظيفته دراسة اللغة ذاتها وإظهار خواصها ومميزاتها، وتدوين هذه الخواص كما هــي في صورة قواعد ونظم عامة وهذه الوظيفة تتفق بشكل تام والمفهوم الحديث للغة فــهي في عرفنا الحالي: ما يتكلمه الناس بالفعل لا ما يجب أن ينطقوا به".

وبهذا تستند وجهة ابن خلدون النحوية إلى أنظار النحاة القدماء في نظرتهم للنحو على أنه علم مستنبط من مجاري كلام العرب، وتتضمن وجهته في البيان عــن النحــو مستوى آخر من الدرس الذي يتلاقى والنظر اللساني الحديث، ويتمثل هذا المستوى فــي إدراك علاقة النحو بالدلالة والاستناد لنظرية العلاقات لتفسير الظاهرة اللغوية، واستطاع أن يفرق بين مسألة الملكة اللسانية وصناعة العربية.

---

(١) نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، ص١٨.

الإعراب

يعد الإعراب ظاهرة لغوية مرت بها لغات كثيرة، فقد عرفت الأكادية [١] الحركات الثلاثة التي تعبر عن الرفع والنصب والجر، وأشارت النقوش النبطية[٢] إلى الحالات الإعرابية كاللغة العربية تقريبا، وقد أسقطت بعض اللغات هذه الظاهرة كالآرامية التي يرى بعض الباحثين أن لا إعراب فيها[٣].

واحتفظت العربية بظاهرة الإعراب كاملة، هذه الظاهرة الغامضة في أصولها ويظهر أثرها بأقدم صورة في نقش النمارة "الذي عثر عليه بالشام والذي يعطينا صورة واضحة عن آثار الإعراب الذي تطور وأصبح كاملا في العربية الباقية"[٤].

وأول ما يلفت النظر في هذه الظاهرة هو: حدوث خلط بين مفهوم كل من النحو والإعراب ومن أمثلته: ما ورد في لسان العرب من تعريف لمادة النحو جاء فيها: "والإعراب الذي هو النحو إنما هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ"[٥].

---

(١) ينظر: ابراهيم السامرائي، فقه اللغة المقارن، ص١١٨.
: محمود فهمي حجازي، علم اللغة، ص١٤٤.
(٢) ينظر: صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص٤٨.
(٣) ابراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص١٩٦.
(٤) أحمد ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي، ص٧.
(٥) ابن منظور، لسان العرب، مجلد ٦، ص١٥٥.

وتتضح هذه الفكرة لدى النظر في كتاب (سر صناعة الإعراب) حيث يتوقع المرء تضمن الكتاب دراسة إعرابية في نحو العربية، لكنه يفاجأ بأنه عبارة عن دراسة صوتية لحروف المباني أو حروف الهجاء، مع تبيان بعض من أحكام النحو، لكنه ربما قصد بالإعراب الإبانة مما يجيز التسمية.

وورد كذلك في دائرة المعارف الإسلامية: أنهم "قد يسمون النحو أحيانا علم الإعراب"(١).

ويبدو أن تعريفهم النحو بأنه علم الإعراب عائد لكون الإعراب سببا في نشأة النحو فسمي باسمه واستأثر الإعراب باهتمامهم، وأصبح المحور الذي يدور حوله النحو فكأنه كل والإعراب بعض هذا الكل، ولو كان النحو هو الإعراب لما وُجد النحو في اللغات غير المعربة كالإنجليزية.

والثاني: عدّ الإعراب مفترقا عن البناء وفي ذلك يقول سيبويه "هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية، وهي تجري على ثمانية مجار: على النصب والجر والرفع والجزم، والفتح والكسر والضم والوقف"(٢).

ويقدم بهذا التعريف تفريقا بين المعرب والمبني فالمجاري الأربعة الأولى للاعراب والأربعة الثانية للبناء، ويؤكد ذلك بقوله: "وإنما ذكرت لك ثمانية مجار لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل... وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه العوامل"(٣).

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ٣، ص٥٤٢-٥٤٣.

(٢) سيبويه، الكتاب، ج١، ص٤١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٤١.

ويبدو أنّ النظر إلى مفهومي الإعراب والبناء يُظهر أنهما لا يتقابلان إذ يتضح أنّ معنى البناء للكلمات الثابتة في التركيب والملازمة لأداء واحد لا يلغي عنها صفة الإبانة، إنما يسلب عنها صفة التغيير، وكأن الذي منح هذه الكلمات المتغيرة مصطلح الإعراب هو ما وجده النحاة من دلالة العلامات على معان نحوية مثل:

الرفع علم الإسناد، والنصب علم المفعولية وهكذا، وهذا ما أشارت إليه العبارة التالية: "عندما وجد النحاة فيه بيان أداء ودلالة، خصوه بمصطلح الإعراب، ولما لم يتجاوز المبني بيان الأداء خصوه بمصطلح البناء"(١).

وبالرغم من تعدد المعاني اللغوية للإعراب، وعده حينا "تحبب المرأة إلى زوجها"(٢)، أو "إزالة العربة أي الفساد"(٣)، بالرغم من هذا التنوع الدلالي يمكننا العثور على صلة بين أحد المعاني اللغوية للمفهوم ومعناه الاصطلاحي حيث عُرف الإعراب على أنه:-

"الإبانة عن المعاني بالألفاظ"(٤) و "الوضوح والإفصاح والإظهار"(٥) كما يقال أعرب عن حاجته إذا أبان عنها، ومنه قوله عليه السلام الثيب تعرب عن نفسها أي تبين وتوضح، ويلتقي هذا التعريف اللغوي ووظيفة الإعراب وهي الإفصاح عن المعاني وإظهارها أي إعرابها.

---

(١) محمد البنا، الإعراب سمة العربية الفصحى، ص١٢.

(٢) السيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص١٠٥.

(٣) السيوطي، همع الهوامع، ج١، ص٤٠.

(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٣٣١.

(٥) الأزهري، تهذيب اللغة، ج٢، ص٣٦١،
وينظر: جرمانوس فرحات، الإعراب عن لغة الأعراب، ص٤١.

أما الإعراب اصطلاحا

فقد أدلى فيه الكثير من علماء النحو العربي، ويمكن تلخيص آرائهم في نقطتين.

الأولى: تعريف لفظي للإعراب ويراه: الحركة أو الحرف، وهو الأثر الظاهر أو المقدر الذي يحدثه العامل في آخر الكلمة المعربة، وكان هذا رأي كثير من علمائنا منهم ابن مالك[١] (ت ٦٧٢هـ).

والثانية: تعريف معنوي: وهو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا أو تقديرا وهو ما رآه الأعلم الشنتمري[٢] (ت ٤٧٦هـ).

وبالرغم من اختلاف زوايا النظر التي أدت إلى اختلاف اتجاهات المفهوم الإعرابي، إلا أن كلا من الفريقين تمكن من تقديم حجته الداعمة لرأيه والمؤيدة لها.

الإعراب عند ابن خلدون

تعددت آراء ابن خلدون في الإعراب، فقد ميز بداية بين النحو والإعراب وأدرك تضمن النحو للإعراب، وعده - أي الإعراب - جزءا من النحو ويتضح هذا من قوله: "فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه... ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير

---

(١) ابن مالك، شرح التسهيل، ج١، ص٣٤.
وينظر: ابن هشام، شرح شذور الذهب، ص٣٤.
العكبري، مسائل في النحو، ص٩٥.

(٢) الأعلم الشنتمري، النكت في تفسير كتاب سيبويه، ص١٥٢.
وينظر: ابن عصفور، المقرب، ج١، ص٤٧.
الأهدل، الكواكب الدرية، ج١، ص١٤-١٥.

عاملا... وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتـــاب، وجعلوهـــا صناعـــة مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو"[١].

فقد بين من خلال هذا النص أنّ الدائرة الكبيرة هي للنحو الذي يشـــتمل علـــى الإعراب، وكشف أن الإعراب هو ذلك التغير اللاحق لأواخر الكلمات الذي يتبعه تغيير في الدلالات.

ونظر إلى الإعراب على أنه: تغيير في حركات أواخر الكلم بسبب تغيّر العوامل الداخلة عليها، هذه الحركة التي أطلق عليها بعض المحدثين لفظ "المورفيم"* فـــالإعراب عند أحمد ياقوت هو: "مورفيم من المورفيمات التي تدل على المعنى الوظيفي للكلمـــة بالنظر إلى معاني الكلمات الأخرى التي تتكون منها الجملة"[٢].

وأدرك ابن خلدون في قوله السابق دور الحركات الإعرابية في تغـــيُّر الدلالـــة وأثرها في تحديد المعاني النحوية، لأن مهمة الإعراب الأولى هي التعبير عن المعـــاني النحوية التركيبية، ووظيفة الإعراب كذلك إفادة أصل المعنى وهذا ما أكده فـــي حديثـــه عن سلوك الأسلوب فقال إنه: "عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيـــه الـــتراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه، ولا يُرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب"[٣].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٦.

* المورفيم: "أصغر وحدة تركيبية نحوية ذات وظيفة نحوية صرفية قادرة على تمييز الكلمات المركبة مثل (يلعب ون – يلعب ان) ينظر: مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ص٧٧.

(٢) أحمد ياقوت، ظاهرة الإعراب في القرآن الكريم، ص٢٤.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص ١٢٩٠-١٢٩١.

ومن خلال النص الذي عرض فيه لمفهوم صناعة النحو واشـــتمالها لعلاقـــات الأبنية والمستوى الإسنادي الذي ينتظمها، يتبين أن ابن خلدون لم ينظر إلى الإعـــراب مفردا في كلمة بل رآه من خلال العلاقات التركيبة الإسنادية في الجملة فيقول:

"الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع مع كلامه هي: إما تصور مفـــردات تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض، وإما تمييز المسندات مـــن المســـند إليـــها والأزمنة، ويدل عليها بتغيّر الحركات وهو الإعراب وابنية الكلمات، وهذه كلـــها هـــي صناعة النحو"(١).

ويتنبه ابن خلدون بهذا إلى دور الإعراب في عملية الإسناد، والإعراب بهذا هو المسؤول عن كل جزئية في الجملة وعن بيان دورها ومكانها منـــها فمـــا الجملـــة إلا مجموعة من عناصر الإسناد سواء أكانت مبتدأ أم خبرا أم فعلا أم فاعلا أم مضافـــا أم مضافا إليه، لأن نظام الجملة في العربية لا بد أن يتكون في نواته الأولى من "الفعل في الجملة الفعلية والمبتدأ في الجملة الأسمية"(٢).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٣.

(٢) خليل أحمد عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها، ص١٨٩-١٩٠.

فالألفاظ بذاتها تحمل دلالاتها الخاصة وعندما تأتلف يضاف إليها معان جديـــدة ناشئة من هذا التضام ومن هذه العلاقات الإسنادية، وفي ذلك يرى فندريس أن الجملـــة تشمل نوعين من العناصر، وهي العناصر اللغوية التي تعبر عن ماهيـــة التصـــورات والتي يسميها "دوال الماهية"(١) والعناصر التي تعبر عن النسب بين الماهيات ويســـمها "دوال النسبة"(٢).

ويسهم الإعراب في إظهار العلاقات الإسنادية ويشكل جزءا من النحو إذ هـــو: "قانون تأليف الكلام، وبيان لكل ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة، والجملة مـــع الجمل، حتى تتسق العبارة ويمكن أن تؤدي معناها"(٣).

وهذه الملاحظ التي أوضحها ابن خلدون حول الإعراب تلتقي بكـــل جزئياتـــها والتعريف الحديث للإعراب فهو: "تحليل لغوي للجملة وذلك بتحديـــد نـــوع ووظيفـــة الكلمات في الجمل لبيان ما فيها من فعل أو فاعل أو مبتدأ أو خبر أو مفعـــول بـــه أو حال... إلخ، وبيان العلامة الدالة على وظيفة الكلمة في الجملـــة، وهـــذا المعنـــى هـــو المقابل لـــ Linguistic analysis or parsing والغاية من الإعراب بـــهذا المعنـــى أو تحليل الجملة: تصوير مختلف الأبواب النحوية التي يتكلم بوســـاطتها الفكـــر، وإدراك العلاقات بين عناصر الجملة للوصول إلى المعنى إذ المعاني المعجميـــة للمفـــردات لا تؤدي إلى فهم جملة من الجمل"(٤).

---

(١) فندريس، اللغة، ص١٠٥.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٥.

(٣) ابراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص١.

(٤) محمد ابراهيم عبادة، الجملة العربية، ص١٦٧.

ثانيا: الحركات الإعرابية

دور الحركات الإعرابية عند القدماء

شغلت مسألة دور الحركات الإعرابية في التعبير عن المعاني مكانة مميزة في القديم والحديث، وتعددت الفكر ووجهات النظر تجاه هذه المسألة وتنتظم الآراء النحوية التي عرضت لها ضمن سياقين:

الأول: ينظر إلى الحركات الإعرابية على أنها علامات لمعان مختلفة تكتنف الكلام ويبين هذا السياق وظيفة الحركات الإعرابية في الكشف عن المعاني.

الثاني: ينظر للحركات الإعرابية على أنها مجرد وسيلةٍ يُستعان بها لوصل الكلام وينفي أي قدرة لتلك الحركات في الإبانة عن المعاني.

ويأتي الزجاجي (ت ٣٧٧هـ) في السياق الأول فقد أفرد بابا عنوانه (باب القول في الإعراب لم دخل في الكلام) ويناقش فيه سبب وجود الحركات وعلّة استخدامها والفوائد المتحصلة من ذلك الاستخدام فيقول: "إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة، ومضافة، ومضافا إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني، بل كانت مشتركة، جُعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني فقالوا ضرب زيد عمرا فدلوا برفع زيد على أنّ الفعل له ونصب عمر على أنّ الفعل واقع به ... وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم،

ويقدموا الفاعل إن أرادوا أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالة على المعاني"[١].

وبهذا القول يبين أثر الحركات الإعرابية في تشكيل المعاني النحوية وتوفير الاحتمالات المتعددة في تركيب الجملة من حيث التقديم والتأخير دون ضياع المعاني لأن الحركات دوال عليها.

ويلتقي ابن جني (ت ٣٩٢هـ) والزجاجي في تقدير دور الحركات في إظهار المعاني، حيث عرّف الإعراب من خلال بيان وظيفته فقال فيه، الإعراب: "هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه وشكر سعيدا أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرحا واحدا لاستبهم أحدهما عن صاحبه"[٢].

ويعرف ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) الإعراب مظهرا قدرته على التمييز بين المعاني وتعيين غايات المتكلمين فيقول: "إن الإعراب هو الفارق بين المعاني، ألا ترى أن القائل إذ قال (ما أحسن زيد) لم يُفرّق بين التعجب والاستفهام والذم إلا بالإعراب"[٣]، وبهذا يكون قد قصد بالمعاني المعاني النحوية، فيقول في الإعراب: "هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت..."[٤].

---

(١) أبو القاسم الزجّاجي، الإيضاح، ص ٦٩-٧٠، ونقل عنه السيوطي في الأشباه والنظائر.

(٢) ابن جني، الخصائص، ج ١، ص ٣٥.

(٣) ابن فارس، الصاحبي، ص ٣٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٣، ونقله السيوطي، المزهر، ج ١، ص ٣٢٩.

ويتبع النحاة المتأخرون خطى المتقدمين ومنهجهم فهذا ابن الخشاب (ت ٥٦٧هـ) يعدّ غياب الحركات علة للالتباس وضياع المعنى، حيث يقول: "لو لم يدخل الإعراب الكلمة التي تتعاقب عليها تلك المعاني التبست"[١].

ويعلل العكبري (ت ٦١٦هـ) دخول الإعراب إلى الكلام فيقول: "دخل الكلام ليفرق بين المعاني"[٢].

وفيما لو تبدلت المعاني فالمعين في نظر ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) هي الحركات لأنها: "الدالة على تبدل المعاني"[٣].

ومما سبق ندرك العناية الكبيرة والمكانة الجليلة التي أولاها النحاة القدماء لقدرة الحركات على التفريق بين المعاني.

ولم يتركوها مطلقة، ولم يعنوا بكلامهم المعاني الخاصة والمميزة لكل لفظٍ دون سواه، بل أرادوا المعاني النحوية من فاعلية أو مفعولية، وهذا ما أوضحوه في بيانهم للعبارات المؤكدة أهيمة الحركات في إبراز المعاني.

وكان قطرب[٤] رائدا لأصحاب هذا الاتجاه، فعندما تحدث الزجاجي عن دور الحركات الإعرابية، قال في نهاية حديثهِ: "هذا قول جميع النحاة إلا قرطبا".

---

(١) ابن الخشاب، المرتجل، ص ٣٤.

(٢) العكبري، مسائل في النحو، ص ٩٥.

(٣) ابن مالك، شرح التسهيل، ج ١، ص ٣٦.

(٤) محمد بن المستنير، تلميذ سيبويه، ت ٢٠٦هـ: طبقات الزبيدي، ص ١٠٦.

فهو ينظر للحركات من وجهة نظرٍ خاصة، ويقدّم فيها رأيا مخالفا لما أجمع النحاة عليه فيقول: "لم يُعرب الكلام للدلالة على المعاني، والفرق بين بعضها وبعض لأنّا نجد في كلامهم أسماء متفقة في الإعراب مختلفة في المعاني، وأسماء مختلفة في الإعراب متفقة المعاني، فما اتفق إعرابه واختلف معناه قولك إن زيدا أخوك، ولعل زيدا أخوك... ومما اختلف إعرابه واتفق معناه قولك ما زيد قائما، وما زيدٌ قائم ... قال: فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعاني لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه لا يزول إلا بزواله ... وإنما أعربَت العرب كلامها لأن الاسم في حالة الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصلهُ بالسكون أيضا لكان يلزمهُ الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان، ليعتدل الكلام"[1].

وهكذا يكشف أن علة وجود الحركات الإعرابية ترجع إلى غاية واحدة هي وصل الكلم وصلا يسهل النطق به، والتساؤل هنا: لو كان الغرض من الحركات وصل الكلم فلماذا لا نختصر هذه الحركات بحركةٍ واحدة؟

وبهذا يمكننا نفي هذه الحجة التي اعتمدها بعض الباحثين المعاصرين، ومنهم: فؤاد الترزي، الذي رأى أن الحركات الإعرابية "إنما وجدت في الأصل لغرض لفظي

---

(١) أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح، ص ٧٠-٧١.

يُنظر: أحمد حاطوم، كتاب الإعراب، ص ١٩٦.

خليل عمايرة، في التحليل اللغوي، ص ٦٧.

هو تيسير ارتباط الألفاظ بعضها ببعض"[١].

ويتأثر ابراهيم أنيس برأي قطرب "وإن لم يشر إليه"[٢]، ويظهر هذا التأثر بالتصريح بالعنوان التالي "ليس للحركة الإعرابية مدلول"[٣]، حيث يسير على خطى قطرب في اعتقاده بأن الحركات الإعرابية لم تكن تحدد معنى في أذهان العرب، بل كانت "لوصل الكلمات بعضها ببعض"[٤]. ورأى أن فكرة جعل الحركات مفرقة لمعاني الفاعلية والمفعولية واهية بدليل أننا "نقف عليها بما يسمى السكون، ومع ذلك ندرك بسهولة المراد منها"[٥]، ويردّ تحديد معاني الفاعلية والمفعولية إلى أمرين آخرين مغايرين للحركة الإعرابية وهما:

"١- نظام الجملة العربية والموضع الخاص لكل من هذه المعاني اللغوية في الجملة.

٢- ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات"[٦].

ولا تدل الحركات الإعرابية عند داوود عبده على معاني الفاعلية والمفعولية بدليل تغير الحركات مع بقاء المعنى واحدا، ودليلهُ أن الحركة لو دلّت على المعاني

---

(١) فؤاد ترزي، في أصول اللغة والنحو، ص ١٨٧.

(٢) رمضان عبد التواب، قضية الإعراب في العربية الفصحى بين أيدي الدارسين، مجلة المجلة، ع ١١٤، السنة ١٠، حزيران، ١٩٦٦، ص ١٠٣.

(٣) إبراهيم أنيس، أسرار اللغة، ص ٢٢٥.

(٤) ينظر: مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ص ٢٥٢-٢٥٤.

: صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص ١٢٨-١٣٠.

: أحمد حاطوم، كتاب الإعراب، ص ٢٠١-٢٠٤.

(٥) إبراهيم أنيس، أسرار اللغة، ص ٢٢٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٢٨.

المختلفة لوجب أن تقوم بهذه الوظيفة دائما، وتفسيره لهذه الحركات هو سماع اللغويين لها من القبائل العربية، "فحاولوا ردّها إلى قواعد إعرابية"[١]. ليس إلا

الحركات الإعرابية عند ابن خلدون

ولم يخرج ابن خلدون عن منهج النحاة القدماء في بيانه عن أهمية الحركات الإعرابية والكشف عن وظيفتها في الإفصاح عن المعاني، ويعدّ هذه الوظيفة ملمحا من ملامح الملكة اللسانية المتحصلة للعرب دون غيرهم، إذ يقول: "كانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانةً عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعيّن الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات، من غير تكلّف ألفاظ أخرى وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب، وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد لهُ من ألفاظ تخصهُ بالدلالة، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما نقدره بكلام العرب، وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصارا"[٢].

وتنتظم هذا النص فكرة مركزية مفادها تفضيل العربية على غيرها من اللغات لقدرتها على توضيح المعاني بغير الكلمات، هذه الميزة التي تعطي العربية صفة

---

(١) داود عبده، أبحاث في اللغة العربية، ص ١١٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص ١٢٥٤-١٢٥٥.

الإيجاز، وبها يكون ابن خلدون قد تنبه إلى جانب جميل من اللغة العربية وليس كما رآه البكوش حيث قال أنه رأي "يعتمد الانطباع والظن أكثر مما يعتمد البرهان"(١).

وهنا أشير إلى أنّ تفاضل اللغات وتمايزها لا يعتمد شرط الإيجاز وحده فلا بد للغة المميزة من القدرة على التعبير عن حاجات متكلميها المختلفة دون اللجوء إلى غيرها، وفي هذا السياق يقول عبد القادر المهيري: "لا بد من الاعتراف بأن رؤية صاحب المقدمة تضيق بعض الشيء عندما يحكم للعربية بالتفوق في الوضوح والإبانة ... والذي يميز بين اللسان واللسان لا يكمن في طاقتهما التعبيرية، إنما في سعة التجربة البشرية التي لأصحابها ومدى شمولها، ثم إن ما يقدمه من حجج لفائدة العربية كتحميلها الحركات والحروف أو الأدوات معاني تفي بمدلولات تغني عن التعبير عنها بألفاظ دالة أي وحدات معجمية ليس وقفا على لغتنا، فوسائل الإفادة متنوعة في جل اللغات"(٢).

فقد اعتنى ابن خلدون بقضية الإيجاز إلا أنه تطرف في حكمه وحصره هذه المسألة في اللغة العربية نأى به عن التوسع في تحليل هذه القضية.

وقد أشار محقق المقدمة إلى قدرة غير العربية على تعبير غير الكلمات فيها عن المعاني، وكان ذلك في معرض حديثه عن اللغات الهندية ـ الأوروبية فيقول: "يشير الأصل في الكلمة الهندية الأوروبية إلى معناها العام أما ما عدا ذلك فيشار إليه

---

(١) الطيب البكوش، العلاقات بين الألسن ومستوياتها في التراث، حوليات الجامعة التونسية، ع ٣٦، ١٩٩٥، ص ١٤.

(٢) عبد القادر المهيري، ابن خلدون ، علوم اللسان، حوليات الجامعة التونسية، ع ٢٤، ١٩٨٥، ص ٩، وينظر: عبد القادر المهيري، أعلام وآثار من التراث اللغوي، ص ١٤٧.

بالعلامات الآتية: ....."[١]، ويذكر طائفة من العلامات كاللواحق والسوابق "وأصوات تأتي عقب اللاحقة فتختم بها الكلمة لتعيين وظيفتها في الجملة كونها فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه"[٢].

وكلامه السابق لم يحملهُ على نفي ميزة العربية ومقدرتها الإعرابية، فقد بيّن هذه الميزة في معرض حديثه عن ميزات العربية عن بقية أخواتها السامية فقال: "ومن مميزاتها النحوية تلك القواعد الدقيقة التي اشتهرت باسم قواعد الإعراب، والتي يتمثل معظمها في أصوات مدٍ قصيرة تلحق أواخر الكلمات لتدل على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة"[٣].

وهنا يضيف علي عبد الواحد وافي بعدا جديدا لأنظار سابقيه لعلامة الإعراب يتجسد في فكرة العلاقات التي تنظم الكلمات وتؤسس عليها روابط الكلم، وبهذا يمد في أفق علامات الإعراب كي تتعدى الدور الوظيفي الأول، وهو علاقتها بالمعنى إلى نظام تتشاكل عليه الأبنية ويؤلف أنساقها على بعد بنيوي خاص بها.

ويستمر تأكيد النحاة دور الحركات الإعرابية، ولإبراهيم مصطفى رأي لا يمكن إغفاله في هذا المجال، فهو يبين أهمية الحركات العربية، ويعين معنى لكل حركة "فأما الضمة فإنها علم الإسناد، ودليلٌ أن الكلمة المرفوعة يراد أن يُسند إليها ويُتحدث عنها، وأما الكسرة فإنها علم الإضافة، وإشارة إلى ارتباط الكلمة بما قبلها، سواء كان هذا الارتباط

---

(١) علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص ٢٠٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠١.

(٣) علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص ١٠٢.

بأداة أو بغير أداة ... أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شـــيء بـل هـي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب، التي يراد أن تنتهي بها الكلمة، كلما أمكن ذلـك، فهي بمثابة السكون في لغة العامة"[١].

ويقف المرء أمام هذه الآراء المختلفة موقف الحائر، لكن عمق نظـر علمائنـا العرب وتفسيرهم المنطقي المحكم لكثير من الظواهر يسهم في البيان عـن سـيرورتها ضمن أنساق خاصة بها، وإدراكنا أن الخلاف بين المؤيدين والمعارضين لدور الحركات الإعرابية هو خلاف في فهم (المعنى) حيث قصد المؤيدون بالمعاني (المعاني النحويـة) الفاعلية والمفعولية، وأراد المعارضون بها المعاني الخاصة التي تحملها كل كلمة وتنفرد بها دون سواها، يُساعدنا هذا كله في إدراك الدور والمكانة العليا التي تتخذها الحركـات في الإبانة عن المعاني.

وتظهر أهمية الحركات الإعرابية في التراكيب التي تكون فيها هذه الحركـات مركزية يستند المعنى إليها، ومن أمثلة هذه التراكيب الآيات التالية:

أولا: {إن الله برئ من المشركين ورسولُه}[٢].

ثانيا: {إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ}[٣].

---

(١) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص ٤٥-٥٠.

ينظر: عبد المتعال الصعيدي، النحو الجديد، ص ٢١-٢٢.

مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) سورة التوبة، آية (٣).

(٣) سورة فاطر، آية (٢٨).

ثالثا: {إذ ابتلى إبراهيمَ ربُه}[١].

وكذلك العديد من العبارات التي امتلأت بها كتب النحو، والمشيرة إلى تغير المعاني بتغير الحركات كعبارة (لا تأكل السمك وتشرب اللبن)[٢]، حيث تحتمل هذه العبارة معاني النهي والمصاحبة والتشريك والاستئناف التي لا تحدد إلاّ بالحركات.

وخلاصة القول أن الإعراب ليس زخرفا لتجميل الكلام، بل هو عنصر أساسي في تكوينه، وإذا ما حذف منه ذهب جزء من المعنى، وفقد شيء من الفروق بين تعابير يختلف معناها باختلاف الإعراب وحده فيها.

ثالثا: نظرية القرائن النحوية

القرائن النحوية عند النحاة القدماء

يقع نظام الجملة في العربية ضمن مجموعة قوانين تنظم سلوك المفردات وتجعلها في نسق تحتكم إليه لأداء المعنى المراد، والملاحظ أن المتكلم قد لا يشعر بجملة القوانين التي يرجع إليها في بيانه عن المراد لكنّه يمتلك القدرة التي تمكنه من إنكار التراكيب المخالفة لهذه القوانين.

ويستند النظام اللغوي إلى مجموعة من وسائل الترابط مما يكفل له التماسك المفضي إلى تحقيق المقصد، وفق نظم مخصوص تحقيقا لغاية الكلام وهي الفهم والإفهام، وتعتمد اللغة مجموعة من القرائن التي تسهم بذلك.

---

(١) سورة البقرة، آية (١٢٤).

(٢) ابن هشام، مغني اللبيب، ص (٦٢٦).

وتحصل لقرينة الإعراب مكانة خاصة لم تحققها أي من القرائـــن اللغويـــة، إذ لوحظ أنها شغلت القدماء، وامتد ذلك إلى المعاصرين الذين أعطوها جل اهتمامهم عـــبر دراستهم للظاهرة اللغوية، وهذا ما أراده تمام حسان من قوله: "وحيـــن صـــادفوا هـــذه القرائن تكلموا فيها ونظموها... لكنهم أفرغوا كل اهتمامهم في تنظير الإعراب"(١).

وتنبه نحاتنا من قبل إلى القرائن اللفظية والمعنوية واعتمدوها فـــي كثـــير مـــن أحكامهم فقد أظهر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـــ) دور القرائن في تعيين المعنـــى النحوي عندما رأى أن كل تركيب معين في الجملة يقصد به الدلالة على شيء لا يؤديه تركيب آخر، وكل اختلاف في التركيب لا بد أن يتبعه اختلاف في الدلالة(٢).

ويشير ابن يعيش (ت ٦٤٣هـــ) إلى القرينة اللفظية والحالية ودورها في إيصال المعنى فيقول: "اعلم أن المبتدأ والخبر محل الفائدة، فلا بد منهما إلا أنه قد توجد قرينـــة لفظية أو حالية تغني عن النطق بأحدهما فيحذف لدلالتها عليه، لأن الألفاظ إنما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون اللفظ جاز ألا تأتي به ويكون مرادا حكمـــا أو تقديرا"(٣).فهو بهذا يشير إلى الوظيفة التي تقوم بها القرائن حيث تملـــك القـــدرة علـــى إظهار المعاني إذ تسد مسد الألفاظ الحاملة للمعاني في ذواتها.

وترد كثير من توجيهات ابن هشام (ت ٧٦١هـــ) إلى القرائن النحوية، ومن ذلك تفسيره لقراءة يزيد القعقاع المدني في قوله تعالى {بما حفظ الله} ينصب لفـــظ الجلالـــة

---

(١) تمام حسان، تحديد المعنى النحوي في غيبة العلامة الإعرابية، مجلة معهد اللغة العربية، جامعة أم القرى ع ١، (١٤٠٢-١٤٠٣) (١٩٨٣-١٩٨٤)، ص ٢١.

(٢) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٥٥-٥٦.

(٣) ابن يعيش، شرح المفصل، ج ١، ص ٩٤.

حيث يقول إن الفاعل هو "اسم الله تعالى ولكنه نصب لفهم المعنى فإن من كلامهم أن الفاعل ربما نصب إذا أمن الإلباس كقولهم كسر الزجاجُ الحجرَ، وخرق الثوبُ المسمارَ"(١).

وأدرك الرضي (ت ٦٨٦هـ) الدور الذي تقوم به الرتبة في تحديد المعاني في حال غياب الحركة الإعرابية فقال: "إذا انتفى الإعراب اللفظي في الفاعل والمفعول معا مع انتفاء القرينة الدالة على تمييز أحدهما عن الآخر وجب تقديم الفاعل"(٢).

ويتطابق هذا الفهم بشكل تام مع عبارة محمد صلاح الدين حيث يقول: "عند غياب الإعراب تقوم الرتبة بجزء غير بسيط في توضيح المعنى(٣)"، وتدل هذه الإشارات إلى معرفة القدماء لمجموعة من القرائن التي تسهم في تنظيم الجملة العربية وكشف معانيها.

القرائن النحوية عند ابن خلدون

يصدر ابن خلدون عن فكرة مفادها مغايرة لغة العرب - خصوصا أهل الحضر في عهده- ومخالفتها للغة مضر، وتركز وجه الخلاف بينهما في نقطة مؤداها فقدان الحركات الإعرابية من أواخر كلمات عربية عهده وفي ذلك يقول: "ولم يفقد من أحوال اللسان المدون إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر

---

(١) ابن هشام، مغني اللبيب، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢) الاستراباذي، شرح الكافية، ج ١، ص ٧٢.

(٣) محمد صلاح الدين بكر، نظرة في قرينة الإعراب في الدراسات النحوية القديمة والحديثة، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، حولية (٥) الرسالة العشرون (١٤٠٤-١٩٨٤)، ص ٣٣.

طريقة واحدة ومهيعا* معروفا وهو الإعراب، وهو بعض من أحكام اللسان"[١] ويتضمن قوله: (بعض من أحكام اللسان) إلماح وإشارة إلى (كل) يحتوي الإعراب، ويجعل القرائن الكفيلة بإظهار المعاني جزءا من هذا الكل.

وإذا كان فقدان الحركات الإعرابية – التي أكد دورها في موضع سابق – "ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد"[٢].

فعلام اعتمد في سبيل الإبقاء على الفهم والإفهام في اللغة؟

الذي يبدو واضحا أنه بين أن الإعراب بعض من أحكام اللسان وتصدى للرد على "خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب"[٣] الذين يرون أن الإعراب - بمعنى العلامات الإعرابية – هو كل شيء في أحكام اللسان.

واعتمد ابن خلدون على جملة من القرائن القادرة على أن تحل محل علامة الإعراب وهي محتاجة إلى استقراء وإعادة توظيف لها فيقول: "لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخصها، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر"[٤].

---

* مهيع: "المهيع من الطرق: البيّن"، المعجم الوسيط، ج ٢، ط ٣، ص ١٠٤٥.

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج ٤، ص١٢٧١.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص١٢٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص١٢٧١.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص١٢٧٢.

ولم يؤد فقدان حركات الأواخر إلى فقدان المعاني "ذلك أنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري، ولم يفقد منها إلاّ دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول، فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد"(١).

وكلامه يبين لنا أهمية الحركات في اللغة العربية حيث يمثل "الجانب الإعرابي في بيان مضمونها الشيء الكثير، وإن كنا من جانب آخر لا نميل إلى المغالاة في التركيز على هذه القرينة في بيان المعنى النحوي"(٢).

ويكشف هذا النص أن الحركة الإعرابية لا تعدو أن تكون واحدة من القرائن الكثيرة التي تدل على المعنى النحوي.

وبقوله إشارة إلى أن العلامة الإعرابية "حتى عند ظهورها غير كافية بمفردها للدلالة على المعنى النحوي"(٣)

ولم يكتف ابن خلدون بهذا القدر في حديثه عن القرائن بل فصل القول فيها فقال: "وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع، وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج ٤، ص١٢٧٠.

(٢) محمد صلاح الدين بكر، المعنى النحوي، مفهومه ومكوناته، مجلة الحصاد في اللغة والأدب، ع ١، السنة الأولى، جامعة الكويت، ١٩٨١-١٤٠١، ص ١٤٦.

(٣) تمام حسان، تحديد المعنى النحوي في غيبة العلامة الإعرابية، مجلة معهد اللغة العربية، جامعة أم القرى ع ١، (١٤٠٢-١٤٠٣) (١٩٨٢-١٩٨٣) ص٢٣

وتأليفها من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب، وقد يدل عليها بالحروف غـــير المستقلة، ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلـك الكيفيات كما قدمناه، فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظا وعبـــارة مـــن جميـــع الألسن"[1].

وتُفهم الأمور التالية من هذا النص:

أولا: أن المعاني لا بد لها من وسائل تحققها وهي في غالبية اللغات ألفـــاظ وضعـــت لمعان خاصة فلكل معنى لفظ خاص به.

ثانيا: تعدد الوسائل التي تمتلكها اللغة العربية لتحديد المعاني فلديها:

- التقديم والتأخير.

- والحذف.

- والحركة الإعرابية.

ثالثا: هذه القرائن أدت إلى النتيجتين التاليتين:

أ- تفاوت طبقات الكلام العربي حسنا وقبحا بناء على هذه السعة في استخدام اللغة.

ب- إعطاء العربية ميزة في إيجازها.

ويؤكد النص إدراك ابن خلدون لمجموعة من القرائن اللفظية التي تلعب دورا

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٠.

مهما في التعرف إلى الأبواب النحوية "لأنها أيسر وصولا إلى الفهم من تلك القرائن المعنوية"(١).

ولا يقتصر استعمال القرائن النحوية عند ابن خلدون على النثر بل يمتد إلى الشعر فقد ذكر في "فصل أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد"(٢)

أن "الدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك، وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب"(٣).

فوسيلة التفاهم عنده يحددها ويصطلح عليها أهل اللغة والمهم في ذلك أداؤها للوظيفة الموكلة إليها.

وكل ما قام به ابن خلدون في هذا الصدد كان يحمل هدفا واحدا هو إثبات أن لغة عصره مع فقدانها الإعراب عربية مستقيمة سليمة.

ويبدو أن أهم ميزة للعربية ميلها للوضوح وابتعادها عن اللبس فإذا ما حصل ذلك كما هو الحال في لغة عهده - تلجأ اللغة إلى غير الإعراب من القرائن المساعدة

---

(١) تمام حسان، القرائن النحوية واطراح العامل الإعرابين التقديري والمحلي، مجلة اللسان العربي، مجلد ١١، ج١، ١٩٧٤، ص٤٦.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣١٦-١٣١٧.

على إيضاح المعاني وهذا يؤكد "أن العربية لغة تتوخى الإيضاح والأصالة والإعـــراب إحدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية... وفي اللغات الخالية من الإعراب، يعتمد أهل اللغـــة على القرائن، وعلى إضافة كلمات إلى الجملة، لفهم المقصود من المعاني"(١).

القرائن النحوية في نظر اللسانيين المعاصرين

ويتلاقى علماء اللسان المحدثون والنحاة القدماء في نظرية القرائن فقـــد اعتمـــد تمام حسان على هذه النظرية في تفسير الظاهرة اللغوية في ضوئـــها موظفـــا النظـــر النحوي القديم، ويقرر "أن العلامة الإعرابية بمفردها لا تعين على تحديد المعنى، فـــلا قيمة لها دون ما أسلفت القول فيه تحت اسم تضافر القرائن، وهذا القول صادق على كل قرينة أخرى سواء أكانت معنوية أم لفظية"(٢).

فالعلامة الإعرابية لا بد لها من ضمائم أخرى تعينها ومنها: "الرتبة، الأداة البنية الصرفية، التطابق"(٣).

وتنبه نهاد الموسى إلى أن الكاشف للمعنى في حال الكلمات المبنية هو قرائـــن غير الحركة الإعرابية فيقول: "الذي كان يفيد المعنى النحوي للوظيفة التركيبية في حال الاسم المبني بالضرورة هو قرائن من النـــبر والتنغيـــم والـــترتيب... وليـــس حركـــة الآخر"(٤)فالفارق بين نظرة النحاة القدماء والعلماء المحدثين للقرائن هو أن القدمـــاء لـــم يأخذوا بمبدأ تضافر القرائن ولم يبحثوا موضوع القرائن تحت باب خـــاص، وبطريقـــة

---

(١) أحمد عبد الرحيم السايح، اللغة العربية وفلسفة الإعراب فيها، مجلة العربي، الكويت، ع١٣٧، ١٩٧٠ ص٨٦.
(٢) تمام حسان، اللغة العربية ومعناها ومبناها، ص٢٠٧.
(٣) تمام حسان، أمن اللبس ووسائل الوصول إليه في اللغة العربية، حوليات دار العلوم، ع٦٨، ١٩٦٩، ص١٠.
(٤) نهاد الموسى، تاريخ العربية، ص١٢٠.

مفصلة، بل أخذوا بالقرائن في سياق التطبيق، ومن هنا يبرز الفارق بين تصور تمـــام حسان لعملية التضافر وتصور النحاة لها، فالإعراب عندهم بمثابة "صمام الأمان حيـــن تشتبه علينا الأمور وتتعقد".(١)

وهذا ينطبق على النثر والشعر "فرب عبارة من نثر أو بيت من شـــعر تكـــون الحركة الإعرابية هي المفتاح لفتح مغاليقه والنفاذ إلى معناه"(٢).

وصفوة القول أن علامة الإعراب تؤدي دورا كبيرا في البيان عن الدلالة، بيـــد أن ابن خلدون تنبه إلى وسائل بديلة تحل محل علامة الإعراب عند تجاهلها كما حـــدث في عربية عهده.

"فاللغة العربية وكل لغة أخرى في الوجود تنظر إلى أمن اللبس باعتباره غاية لا يمكن التفريط فيها، لأن اللغة الملبسة لا تصلح وساطة للإفهام والفهم، وقد خلقت اللغات أساسا للإفهام والفهم... فإذا كان من الممكن الوصول إلى المعنى بلا لبس مع عدم توافر إحدى القرائن اللفظية الدالة على هذا المعنى فإن العرب كانت تترخص أحيانا في هـــذه القرينة اللفظية الإضافية، لأن أمن اللبس يتحقق بوجودها وعدمه"(٣).

وهكذا يتضح أن القرائن اللغوية متعددة يجمعها هدف واحد مفاده وضوح المعنى وغياب اللبس الذي قد يكتنف الجملة.

---

(١) كمال بشر، مظاهر التطور في اللغة العربية المعاصرة، مجلة المجلة، ع١١٤، س١٠، ١٩٩٦، ص٤٨.

(٢) علي النجدي ناصف، من قضايا اللغة والنحو، ص٢٢.

(٣) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص٢٣٣.

الفصل الثاني

اللغة

أولا : اللغـــة

يمارس الأفراد لغتهم القومية ويستخدمونها في حياتهم اليومية بيسر دون التفكير في ماهيتها، فكأنها أصبحت عادة من عاداتنا اليومية التي نقوم بها بشكل "آلي فتـــؤدي الغرض المطلوب منها بشكل طوعي وسريع"[١]، وتشكل اللغة ظاهرة اجتماعية معقـــدة تحتاج إلى جهود عظيمة للبيان عن أسرارها وقراءة المســـتويات الوظيفيـــة والشـــكلية والبنائية التي تنتظمها.

اللغة لغة واصطلاحا:

يمكن للباحث في لفظة اللغة ودلالاتها المعجمية أن يلحظ الأمرين التاليين:-

أولا: اختلاف العلماء في أصل هذه الكلمة وفي اشتقاقها، فبعضهم يرى أنها من "لغو"[٢] وبعضهم يرى أنها "لغي"[٣].

ثانيا: أن معظم التعاريف الواردة حول اللغة ترى أنها ظاهرة صوتية، أو هي التكلـم أو الهذي أو اللهج[٤].

وذهب بعضهم إلى أن كلمة اللغة ليست عربية، وأنها "مأخوذة عـــن لوغـــوس باليونانية ومعناها كلمة" [٥].

---

(١) نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص٧٦.

(٢) ابن جني، الخصائص، ج١، ص٣٣، وابن دريد، جمهرة اللغة، ج٣، ص١٥١.

(٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص٢٥٥.

(٤) ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، ج٨، ص١٩٧، ١٩٨.
أبو عمر الشيباني، الجيم، ج٣، ص١٩٤.

(٥) بطرس البستاني، محيط المحيط، ص٨٢٠، ولويس معلوف، المنجد، ص٧٢٦.

ويمكن الرد على هذا الادعاء بما يلي:-

أولا: وردت لفظة لغة واشتقاقاتها في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى:

"وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه"[١] و "الذين هم عن اللغو معرضون"[٢]

ثانيا: أثبتت مادة اللغو وتفاسيرها الواضحة في معاجمنا الموثوقة، بل جعلتها عنوانا لها مثل: معجم جمهرة اللغة، وتهذيب اللغة، ومقاييس اللغة، ولم تشر هذه المعاجم من قريب أو بعيد، ولا تلميحا ولا تصريحا إلى كون (اللغة) معربة أو مولدة مع أنها نصت على غيرها من الألفاظ"[٣].

انتقل المعنى اللغوي بعد ذلك ليشكل مفهوما اصطلاحيا خاصا بعلم محدد اعتنى بخواصه علماؤنا العرب، وأظهروا فيه آراء لغوية متطورة لا تقل أهمية عن الآراء اللغوية الحديثة في مجال الدراسات الألسنية، وكان ابن جني (ت٣٩٢هـ) من أوائل من عرف اللغة بقوله هي: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[٤]، ويحتوي هذا التعريف طائفة من القضايا الأساسية في علم اللسان الحديث:-

أولها: أن نظرته للغة على أنها أصوات تظهر إدراكه للحقيقة الفيزيائية للغة، وهكذا أراد أن يبدأ بالصوت الذي قيد بعد ذلك بالحروف الكتابية.

ثانيها: إطلاقه لفظة (قوم) إشارة إلى الدور الاجتماعي في الاتفاق على اللغة وأغراضها، وهذا ما أراده ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) حيث قال في اللغة

---

(١) سورة القصص، آية ٥٥.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٢٥، المائدة، آية ٨٩.

(٣) عبد الإله نبهان، بحوث في اللغة والنحو والبلاغة، ص١٩.

(٤) ابن جني، الخصائص، ج١، ص٣٣.

هي: "ما يتواضع القوم عليه من الكلام"[١]، وما أراده الجرجاني (ت٨١٦هـ) كذلك عندما عرّف اللغة بأنها: "ما يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[٢].

ثالثا: غاية اللغة من حيث المستوى النفسي السلوكي هي التعبير عن الأغراض والمقاصد الإنسانية حيث أن الجماعات اللغوية لا تتداول سلاسل صوتية إنما "تميز مكوناتها وتفهم دلالتها ومحتواها"[٣]، وهو هدف ورد عند معظم من عرّف اللغة، ورأينا ذلك في تعريف الجرجاني والخفاجي، مما يدل على أن اللغة هي أكثر طرق الاتصال الإنساني استعمالا وأعظمها تطورا.

فالتعبير عن الأفكار والمشاعر والأحاسيس هو ما قصده العلماء بقولهم (الأغراض).

وهذا يثبت أن اللغة هي أداة التبليغ والتخاطب التي يتم من خلالها تجدد الأفكار والمعاني بعد أن كانت أحاسيس فبها تستطيع الذات بناء كيانها، لأن اللغة ليست "مجرد وسيلة للاتصال إنها.... مقوم لماهية الإنسان"[٤].

مفهوم اللغة عند ابن خلدون

يعرف ابن خلدون اللغة بقوله: "اللغة في المتعارف عليه، هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئة عن القصد بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة

---

(١) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص٤٦.

(٢) الجرجاني، التعريفات، ص٢٠٢.

(٣) نوال عطية، علم النفس اللغوي، ص٤٦.

(٤) عثمان أمين، في اللغة والفكر، ص٥.

متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها".[١]

ويكشف هذا النص أنّ ابن خلدون يعّرف اللغة بشكل عام، فلم يحصر نفسه بلغة إنسانية معينة "بل عرف اللغة كميزة إنسانية عامة عند الإنسان تتحقق لغة خاصة عند كل شعب من الشعوب"[٢]. ولا ينسب ابن خلدون هذا التعريف لنفسه، فقد أشار إلى أن ما سيقدمه هو (المتعارف عليه) والشائع بين العلماء، ويحتوي هذا الحد مجموعة من القضايا هي:-

أولا: اللغة وسيلة المتكلم في التعبير عن مقاصده فهي سبيله للتواصل الاجتماعي ويقوم هذا التصور الخلدوني على ثلاثة محاور هي (عبارة المتكلم عن مقصوده) و (الإفادة) و (التفاهم) وتلخص هذه المحاور وظيفة اللغة الأساسية، فالقصد هو الفاصل بين ما هو لغوي وما ليس من اللغة، والإفادة هي هدف الاستعمال اللغوي.

وأكد ابن خلدون دور اللغات في التواصل البشري في غير موضع من مقدمته حيث قال: "اللغات إنما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث في العلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر، وروابط وختام على المعاني"[٣]، وهذا يكشف أن وظيفة اللغة نقل المعاني والأفكار الكامنة في أذهاننا

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٤.

(٢) ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، ص٦٤.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٠.

وضمائرنا فهي تظهر ما في نفوسنا، ويوافق فندريس هذه الفكرة، إذ يعرف – في بيانه عن وظيفة اللغة – اللغة على أنها: "فعل اجتماعي من حيث أنها استجابة لحاجة الاتصال بين بني الإنسان"(١).

واللغة من أدوات المجتمعات الإنسانية للتعبير والتواصل "بل هي أهم تلك الأدوات على الإطلاق، يمكن بواسطتها أن نشرح حاجاتنا، ونعبر عن رغباتنا ونبين للآخرين إحساسنا وشعورنا، واللغة بهذا المعنى ضرورة اجتماعية، فلا يمكن لمجتمع ما أن يكون له وحدة وكيان دون هذه الأداة، تربط وحدته وتؤلف بين أفراده وتجمع شتات أغراضه وأهدافه"(٢)، وأظهر محمود السعران وظيفة اللغة موضحا أنها "وسيلة من الاتصال أو التوصيل أو النقل أو التعبير عن طريق الأصوات الكلامية وأن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الأفكار والمعاني والانفعالات والرغبات"(٣)

ويصدر ابن خلدون في بيانه للمستوى الاجتماعي للغة عن نظرته التي تفيد:-

أولا: أن الإنسان مدني بالطبع "أي أنه يعيش في وسط اجتماعي، لذا يستخدم اللغة لترجمة رغباته وأحاسيسه ومتطلباته"(٤).

ثانيا: آلة اللغة هي اللسان: وبهذا التحديد إدراك للعضو المسؤول عن الصورة النهائية في إنتاج المنظومة اللغوية، وهو الوسيلة لهذا النشاط الاجتماعي التواصلي، وهذا

---

(١) فندريس، اللغة، ص٢٤.

(٢) حسن عون، اللغة والنحو، ص٧.

وينظر: دافيد كريستل، التعريف بعلم اللغة، ص٨١-٨٣.

(٣) محمود السعران، اللغة والمجتمع، ص١٢.

(٤) محمد أمين أبو الرب، مفهوم علم اللغة عند ابن خلدون في ضوء الدراسات النحوية، مجلة أفكار، ع٩٨ ١٩٩٠، ص٧.

ما أكده عندما قال: "اللغة ملكة في اللسان"[١]، فالكلام لا يتم تحديده عبر المباني الذاتية للكلام أو المعاني المرتبطة بها فقط "بل يحدد، أيضا، عبر الفعل اللساني الحاصل خلال التعبير"[٢].

ثالثا: اللغة قصدية اختيارية: فاللغة الصادرة عن الإنسان أمر قصدي منبعه تصميم الإنسان على التعبير والتواصل مع المحيط، فهي بذلك عمل عقلي، أو هي "مسلك عقلي أو مسلك عقلي حركي يتواضع عليه البشر ويقومون به في حالات التفكير والتفاهم والاتصال"[٣]، وقد كشفت الدراسات الحديثة اختيارية اللغة وقصديتها، فهذا إدوارد سابير يعرف اللغة بأنها "طريقة إنسانية خالصة وغير غريزية لتوصيل الأفكار والانفعالات بواسطة نسق من الرموز المولدة توليدا إراديا"[٤].

وتتناسب سمة القصدية ووجهة أتباع المسلك العقلي من علماء اللغة إذ يرون أنها: "علاقة متبادلة بين الرمز (الكلمة) والمدلول الذهني "الفكرة أو الصورة الذهنية"[٥] فلا بد لتمام العملية اللغوية من وجود مؤثر مثير يتطلب رد فعل مؤد إلى تناسب منتجه بتصرف رمزي عبر اللغة، وخير من وضح العملية اللغوية وبين أهمية المثير فيها فرديناند دي سوسير[٦]، عندما صورها على شكل دائرة بين السامع والناطق.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٢.

(٢) ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، ص٦٣.

(٣) محمد أبو العزم، المسلك اللغوي ومهاراته، ص٢٧.

وينظر عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص١٢٢-١٢٦.

(٤) إدوارد سابير، اللغة والخطاب الأدبي، ص١١.

(٥) كمال بشر، دراسات في علم اللغة، ص١٦.

(٦) فرديناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ص٢٣.

رابعا: اصطلاحية اللغة واختلافها من مجتمع لآخر: فاللغة برأيه مستمدة من عصور سابقة، وهذا الاصطلاح اللغوي هو الموضح لتعدد اللغات وتمايزها، وقد أشار ضمنا إلى اصطلاحية اللغة عندما قال "واعلم أن النقل الذي تثبت به اللغة إنما هو النقل عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني، ولا نقول إنهم وضعوها لأنه متعذر وبعيد، ولم يعرف لأحد منهم، وكذلك لا تثبت اللغات بقياس ما لم نعرف استعماله على ما عرف استعماله" (١).

فمن خصائص العربية في نظر ابن خلدون أن مادتها تؤخذ بالنقل عن العرب ولا مجال فيها للابتكار والتخمين، وهي تنقل عن العرب باعتبارهم مستعملين للغة لا واضعين لها "وبهذا الموقف يتجنب ابن خلدون قضية شائكة طرحها الفلاسفة قديما... وهي قضية أصل اللغة.... وفي نهي صاحب المقدمة عن القول بأنهم (وضعوها) تحر في التعبير غايته اجتناب الخوض فيما لا يمكن إثباته بالمعاينة فلا يغامر للدخول في موضوع يستحيل الخروج منه بحل"(٢).

وتشكل إشارة ابن خلدون إلى تنوع الألسنة بحسب اصطلاحات كل أمة، إدراكا واضحا لمفهوم هام في البحث اللغوي هو اختلاف الأنظمة الناتج عن اختلاف تحليل التجربة البشرية والأساليب المتوخاة لأداء ما يحصل من هذا التحليل.

ومن قراءة تعريف ابن خلدون للغة يمكننا إدراك ما يلي:-

أولا: إدراكه حقيقة اللغة وخصائصها المختلفة.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٢.

(٢) عبد القادر المهيري، ابن خلدون وعلوم اللسان، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٢٤، ١٩٨٥، ص١٦.

ثانيا: استفادته من آراء السابقين.

ثالثا: سبق ابن خلدون لكثير من الأنظار اللسانية الحديثة في مجال اللغة والملكة اللسانية.

الخلط بين اللغة واللهجة

تظهر الأبحاث اللغوية القديمة ملحظا يكشف عن فهم خاص للغة وتدل على تصور معين لها مفاده "الخلط بين مستويات الأداء اللغوي واللهجي دون تفرقة بين ما ينسب إلى لهجة من اللهجات القبلية وبين ما ينتمي إلى اللغة الفصحى"[١].

وأمثلة هذا كثيرة في تراثنا، فقد روي عن ابن عباس (ت٦٨هـ) أنه قال "نزل القرآن على سبعة أحرف أو قال سبع لغات"[٢] أي سبع لهجات، وقد ورد مثل هذا الاستعمال عند سيبويه (ت١٨٠هـ) في غير موضع، منها: "وعن لغات الأمصار"[٣] "ولغة بني قيس"[٤]، ويستعمل أبو زيد الأنصاري (ت ٢١٦هـ) كلمة لغة ليدل بها على اللهجة فيقول في شرحه لمجموعة من الأبيات "قوله (أما) ذهب بها إلى لغة بني تميم"[٥]، وورد عند ابن جني (ت٣٩٢هـ) باب عنوانه "اختلاف اللغات وكلها حجة"[٦].

---

(١) علي أبو المكارم، تقويم الفكر اللغوي، ص١٥٧.

(٢) ابن فارس، الصاحبي، ص٣٢.

(٣) سيبويه، الكتاب، ج١، ص٩٩.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٠٤.

(٥) أبو زيد الأنصاري، النوادر في اللغة، ص٥٧.

(٦) ابن جني، الخصائص، ج٢، ص١٢.

وجاء في المزهر أنه "اختلف رجلان في الصقر، فقال أحدهما بالسين وقال الآخر بالصاد، فتحاكما إلى أعرابي ثالث فقال: أما أنا فأقول الزقر بالزاي، قال ابن خالويه: تدل على أنها ثلاث لغات"(١).

واستمر الأمر عند ابن حزم الأندلسي الذي قال: "العربية التي هي لغة مضر لا لغة حمير" (٢).

أما ابن خلدون فقد استخدم مجموعة من العبارات التي دلت بها لفظة (لغة) على (اللهجة) فقال:

"فصل في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير"(٣)

"فصل في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر(٤)".

ومرجع هذا الأمر سعة اللغة القادرة على استيعاب هذا التعدد في الاستعمال وألا نقصر اللغة على مفهومها الذي عرفت به إدراكا منا للتطور الدلالي الذي قد يشمل اللهجة في نطاق اللغة أو قد يعبر عنها بأداتها كما قال ابن خلدون: "فصل في تعليم اللسان المضري(٥)".

و"فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية"(٦).

---

(١) السيوطي، المزهر، ج١، ص٤٧٥.

(٢) سعيد الأفغاني، نظرات في اللغة عند ابن حزم، ص١٩.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٤.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٥.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٦.

و "المتكلم بلسان العرب"[١].

وعلى الرغم من هذه السعة اللغوية أرجح استخدام اللهجة فيما يتصل بلهجات القبائل واستخدام اللغة على اعتبار أنها تضم كل اللهجات.

علم اللغة وفقه اللغة:-

أدركت المجتمعات البشرية اللغات منذ القدم، واستخدمتها عصورا طويلة دون أن تفكر في طبيعتها أو وظيفتها تفكيرا علميا، شأنها في ذلك شأن الكثير من الأشياء التي تعامل معها الإنسان دون إدراك حقيقة ماهيتها، فالإنسان تنفس منذ أن وجد لكنه أدرك حقيقة العملية التنفسية في مرحلة لاحقة، وكان هذا شأن اللغة وعلومها.

وعندما أراد الإنسان أن يحدد اللغة ويعرفها، ويبين وظائفها توصل إلى فرعين ويتصف هذان الفرعان بمباحثهما المشتركة مما يجعل تحديد الفروق بينهما مطلبا صعبا.

وتختلف الأنظار اللغوية في بيانها عن علم اللغة وفقه اللغة، فقد يُنظر لعلم اللغة على أنه خاص بالدراسات الحديثة، بينما يتجه النظر لفقه اللغة على أنه يختص بالدراسات اللغوية التراثية القديمة، ويشهد لعلم اللغة بالقدرة على دراسة اللغات جميعا، وأن فقه اللغة خاص بالعربية، لكنهما يؤديان وظيفة واحدة هي خدمة اللغة مما يقلل أهمية التفريق بينهما.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٩.

ثانيا علم اللغة وفقه اللغة

موقف علماء اللغة العرب من فقه اللغة وعلم اللغة.

يمكننا أن نقول "لم يفرّق علماؤنا العرب في الاستعمال بين هذين المفـــهومين"[١] حيث أطلقوا هذه التسمية على مؤلفات تتضمن مواضيع متنوعة:-

فقد سمى أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـــ) مؤلفه: (الصاحبي في فقـــه اللغة، وسنن العربية في كلامها)، وناقش فيه قضايا لغوية مختلفة، حيث ذكر في قســمه الأول مجموعة من الأبواب التي تتناول حياة اللغة عامة (نشأتها، وماهيتـــها، وقيمتـــها وفصيحها ومذمومها...)، وفي قسمه الثاني تناول مجموعة مـــن خصـــائص العربيـــة النحوية منها والبلاغية والصرفية.

ويطلق أبو منصور الثعالبي (ت ٤٣٠هـــ) على كتابه: (فقـــه اللغـــة وأســـرار العربية)، ويبدو أن الاسم لم يكن يجول في خاطره إنما اختاره له "الأمير أبـــو الفضـــل عبيد الله بن أحمد ... ليكون اسما يوافق مسماه ولفظا يطابق معناه"[٢].

وكان القسم الأول الذي سماه فقه اللغة عبارة عن معجم لألفاظ عربية اختارهـــا وجمع بينها وفق المعنى الذي تشترك فيه على ترتيب خاص ظهر له، وتناول في القسم الثاني الذي سماه أسرار العربية مجموعة من خصائص العربية، منها: النظـــم والنحـــو والصرف والبلاغة.

---

(١) عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، ص٥-١٢.

(٢) الثعالبي، فقه اللغة، المقدمة.

وتضمن كتاب المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) أبحاثا لغوية متنوعة، تشتمل النحو والإعراب والصرف والبلاغة.

وأورد علماؤنا القدامى بعض التعاريف لعلم اللغة، دارت معظمها في حلقة علم الدلالة والمعجمات، وكان من بينهم أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) الذي رأى أن على المفسر أن يتقن مجموعة من العلوم ومنها علم اللغة وهو عنده "دراسة مدلول مفردات الكلم"[١]

وقدمت تعاريف لعلم اللغة بكتاب المحكم لابن سيده والصحاح للجوهري والبارع للقالي.

وقد أطلق بعض المؤلفين اصطلاحا آخر على "دراسة دلالات المفردات اللغوية وهو اصطلاح علم متن اللغة"[٢].

هذا إيجاز يكشف عن ملامح التصور الذهني الذي يجول في أذهان بعض القدماء حول هذين المفهومين، وهنا نقف على وجهة نظر ابن خلدون فيهما التي جاءت على النحو التالي:-

وجهة نظر ابن خلدون من علم اللغة وفقه اللغة:

ينظر ابن خلدون إلى علم اللغة على أنه العلم الذي يعمل على "بيان الموضوعات اللغوية"[٣]، التي تعني عنده "دراسة الدلالات التي وضعت لها هذه الألفاظ"[٤]، وسبب نشأة هذا العلم هو فساد ملكة اللسان بملابسة العجم ومخالطتهم، وفي

---

(١) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، المقدمة، ج١، ص٦.

(٢) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص٦٧.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٨.

(٤) كريم حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص٢٩.

ذلك يقول: "حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ... فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس"[١] أي الضياع.

وقدم أمثلة على هذا العلم من كتب المعاجم العربية موضحا دور الخليل بقوله: "وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي"[٢]، ومضى ابن خلدون يشرح أساس معجم (العين) للخليل وفصل القول في مادته وطريقة ترتيبه، وعرض لأمثلة من كتب علم اللغة منها: (مختصر العين للزبيدي) و (الصحاح للجوهري) و (المحكم لابن سيده) و (أساس البلاغة للزمخشري).

ومن انتقائه لهذه الكتب دون سواها نفهم مقصوده من الموضوعات اللغوية، وهو ما يشتمل استعمال الألفاظ في معانيها الأصلية، كما صنع الخليل أو استعمال الألفاظ في معانيها المجازية كما فعل الزمخشري، وبهذا يكون ابن خلدون قد استخدم مصطلح علم اللغة وساق تحته الدراسات المعجمية والدلالية مما يظهر أن علم اللغة عند ابن خلدون علم بالمعاجم على اختلاف أنواعها فمنها الخاص بجمع الألفاظ عامة ومنها المتصل بجمع ألفاظ موضوع معين، ومنها المتعلقة بالمترادفات والمشترك اللفظي، هذه الأنواع يمكن اختصارها بقول محمود فهمي حجازي: "عندما نقلب الصفحات الخاصة بعلم اللغة بالمعنى الذي يقصده ابن خلدون نجده يعني تأليف المعاجم"[٣].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٥٨.

(٣) محمود فهمي حجازي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، ص٩.

وتكشف مقارنة فهم العلماء العرب لعلم اللغة وفهم ابن خلدون له أن فهمه جاء "موافقا لما سار عليه العرب في فهمهم لمصطلح اللغة أو علم اللغة"(١).

لكن لو تأملنا المتناول والمدروس في المعاجم لوجدنا بالإضافة إلى دلالات الألفاظ، مجموعة غنية من التفاسير الصوتية التي قدمها أصحاب تلك المعاجم ويلتقي هذا والفهم الحديث لعلم اللغة الذي يراه "العلم الذي يجعل من اللغة موضوعا للدراسة من حيث الأصوات والمفردات والتراكيب"(٢).

وتتضمن المعاجم مقارنات لهجية وملاحظ صرفية، وتحليلات نحوية، وتلتقي هذه الملاحظ مع علم اللغة الحديث "الذي يدرس اللغة ... دراسة موضوعية غرضها الكشف عن خصائصها وعن القوانين اللغوية التي تسير عليها ظواهرها: الصوتية والصرفية، والنحوية، والدلالية والاشتقاقية"(٣).

وهكذا تسوقنا هذه العبارات إلى عمق الملاحظ الخلدونية حيث خص علم اللغة بالدراسات الدلالية المعجمية. ويبدو أن قراءة المادة المعجمية من جهة والفهم الخلدوني من جهة ثانية يؤدي إلى رصد العلاقة بين التوجهين.

ويمتاز فكر ابن خلدون "بالواقعية والدقة، فقد لاحظ التباين بين الوضع العام والأداء الخاص، يعني بين أصل الوضع والاستعمال، وأدرك بنفاذ ذهنيته العلمية أن القوانين العامة تعني علم اللغة، والخاصة المستعملة تعني فقه اللغة"(٤) وهذا ما أراده

---

(١) عبده الراجحي، فصول في علم اللغة، ص٣٩.

(٢) محمد الأنطاكي، الوجيز في فقه اللغة، ص٨.

(٣) عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة تحديد وتوضيح، ص١٩.

(٤) سالم علوي، ابن خلدون وعلوم اللسان العربي، حوليات جامعة الجزائر ع٨، ١٩٩٤، ص١٩٢.

عندما قال: "لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمور الخاصة ألفاظا أخرى خاصة بها فرق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال، واحتاج إلى فقه في اللغة عزيز المأخذ"(١).

وساق أمثلة على فقه اللغة مثل فقه اللغة للثعالبي، والألفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب، والناظر لهذه المؤلفات والمدقق لمحتواها يجدها تعالج قضايا خاصة في اللغة العربية كالمشترك اللفظي أو المتداول المستعمل من الألفاظ، وهذا يعني أن ابن خلدون جعل علم اللغة عاما إذ يشتمل كل ما يتعلق بالألفاظ ومعانيها، وخص فقه اللغة بنوع من المباحث التي تتضمن الاستعمالات المحددة للغة وألفاظها.

موقف اللسانيين المعاصرين من علم اللغة وفقه اللغة

يلاحظ محمد المبارك تقاربا كبيرا بين المفهومين مما دفعه إلى عد "كلا الاصطلاحين ينطبق على المفهوم العلمي لمباحث اللغة، ويصح أن يطلق أحد الاسمين على علم اللغة بمفهومه الجديد"(٢) وحتى يفرق بين العلمين أطلق على علم اللغة "علم اللغة العام" وعلى فقه اللغة "علم اللغة الخاص"(٣).

وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات في تحديد مفهوم علم اللغة وفقه اللغة عند العلماء المعاصرين إلا أن هناك إجماعا بينهم على أن "علم اللغة ترجمة لـ

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦١.

(٢) محمد المبارك، فقه اللغة، ص٢٦.

(٣) المرجع نفسه، ص١٥.

Lingiustics وفقه اللغة ترجمة لـ Philology" [١].

ويمكننا أن نعرف علم اللغة بأبسط وجوهه على أنه "دراسة اللغة علـــى نحـــو علمي"[٢]، ويمكننا في الوقت ذاته أن نتوسع في فهمه وجعله شاملا للثقافة والتاريخ، فهذا ماريو باي يعرفه فيقول: "علم اللغة يركز على اللغة نفسها ولكن مع إشارات عـــابرة – أحيانا – إلى قيم ثقافية وتاريخية ويولي علم اللغة معظم اهتمامه للغة المتكلمة وإن كـــان يوجه كذلك للغة المكتوبة شيئا من الاهتمام"[٣].

أما فقه اللغة المقابل للفظة الفيلولوجي فيحمل أبعادا عاطفيـــة لأن الفيلولوجـــي "كلمة مركبة من لفظين أغريقين أحدهما Philos بمعنـــى الصديـــق، والثانيـــة Logos بمعنى الخطبة أو الكلام"[٤]، فكأن واضع التسمية لاحظ أن "فقه اللغة يقوم علـــى حـــب الكلام للتعمق في دراسته"[٥].

وتعددت محاور فهم فقه اللغة فهناك:-

---

(١) ينظر: عبد الرحمن أيوب، محاضرات في اللغة، ص٤.
محمد أحمد أبو الفرج، مقدمة لدراسة فقه اللغة، ص١٣.
ماريو باي، أسس علم اللغة، ص٣٥.
مصطفى لطفي، اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، ص١١.
توفيق محمد شاهين، علم اللغة العام، ص١٩.
عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، ص٥.
(٢) محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص٧.
(٣) ماريو باي، أسس علم اللغة، ص٣٥.
(٤) ينظر محمد الأنطاكي، الوجيز في فقه اللغة، ص٨.
عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، ص٥.
(٥) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص٤.

أثرنا أن نطلق عليه اسما خاصا، شاع استعماله في الموضوعات التي يعرض لها وخاصة ما يتعلق منها باللغة العربية"[١].

وأطلق صبحي الصالح اسم (دراسات في فقه اللغة)، على كتابه لأن هذه الدراسات "قصرت على إبراز خصائص لغتنا العربية فكانت أجدر أن تسمى بالاسم الشائع عند العرب (فقه اللغة) حين ألفوا في هذه الموضوعات"[٢].

مما يعني أن فقه اللغة شامل لأنواع من المناهج وفروع من الدراسات هي ذاتها المتناولة في علم اللغة بيد أن الفرق كامن باختصاص فقه اللغة بالعربية أي أن علم اللغة عام، يسع مجال البحث فيه اللغة كظاهرة عامة وتنطبق مناهجه على أية لغة أما فقه اللغة فيتناول ببحثه خصائص اللغة العربية.

ثالثا: هناك من وسع دائرة فقه اللغة وقربها من علم اللغة الاجتماعي كما صرح ماريو باي الذي رأى أن فقه اللغة: "لا يختص بدراسة اللغات فقط، ولكن يجمع إلى ذلك دراسات تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد والنتاج الأدبي للغات"[٣].

ويمكننا أن نعد الفهم اللغوي لكلمة فقه هو الجامع المشترك بين هذه المحاور الثلاث، حيث عرف لغويو العرب الفقه فرأوه "العلم بالشيء والفهم له"[٤]، وهذا يمد في أفق مفهوم (فقه) بطريقة لا تقيده بالنقوش القديمة أو العربية أو غيرها من اللغات.

---

(١) علي عبد الواحد وافي، علم اللغة، ص٥.

(٢) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص٤-٥.

(٣) ماريو باي، أسس علم اللغة، ص٣٥.

(٤) ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٢، ص٣٢٦.
ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص١٥٠.

وهكذا يبدو أن موضوعات علم اللغة الحديث هي ذاتها موضوعات فقه اللغة القديم، حيث لم يترك لغويو العرب مجالا من مجالاته إلا وتطرقوا له "ولئن قصروا أبحاثهم في دراسة اللغة تاريخيا ومقارنة فبسبب عدم أطلاعهم على اللغات السامية وغير السامية اطلاعا يؤهلهم لخوض هذا المضمار"[١].

مما يدل على الدقة العلمية والموضوعية في البحث العربي، فهم لا يطلقون الأحكام إلا في حالة الثقة والتأكد مما يقولون.

---

(١) محمد خضر، فقه اللغة، ص١١.

ثانيا علم الأصوات اللغوية

علم الأصوات والعلماء العرب:

تمثل اللغة أرقى وسيلة يمتلكها الإنسان للتعبير، وتؤدي هذه اللغة وظائفها من تشكيل الأصوات في نظام يأتلف على شكل مرسلة لغوية ذات فحوى دلالي.

وقد عرف العلماء العرب الدراسات الصوتية التي نشأت متسقة والعلوم الهادفة لخدمة الدين الإسلامي عامة والقرآن الكريم خاصة، وقدموا الكثير للبحث الصوتي: فقد أدرك **النحاة** أهمية الملاحظ الصوتية، وأغنى **العروضيون** الأبحاث الصوتية بدراسة الأوزان وائتلافها، وأضاف **القراء والمجودون** الكثير للدرس الصوتي في حديثهم عن أحكام الإخفاء والإظهار [١]، إذ يلاحظ أن "علم الأصوات كان في بدايته جزءا من أجزاء النحو ثم استعاره أهل الأداء والمقرئون وزادوا فيه تفصيلات كثيرة" [٢].

وقد بدأت هذه الدرسات بشكل وصفي معتمد على ذكاء الدارس وعلمه وإخلاصه للعلم، وهنا نشير إلى أننا لا يمكن أن ننكر ذلك الدور التأسيسي العظيم الذي قام به العلماء العرب، حيث وصفوا مخارج الحروف وأصواتها وصفا دقيقا "أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم" [٣].

---

(١) الإخفاء: هو النطق بالحرف بصفة بين الإظهار والإدغام مع بقاء الغنة في الحرف الأول وهو النون الساكنة والتنوين وحروفه مجموعة في أول حرف من كلمات هذا البيت.

صف ذا ثنا كم جاد شخص قد سما دم طيبا زد في تقى ضع ظالما

الإظهار: هو إخراج النون الساكنة أو التنوين من مخرجه إخراجا واضحا من غير غنة عند ملاقاتهما حروف الإظهار وهي: الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء.

ينظر: محمد خالد عبد العزيز منصور، الوسيط في علم التجويد ص١٣٠، ص١٤٢.

(٢) بيرجسترسير، التطور النحوي للغة العربية، ص٥.

(٣) ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٦.

ويأتي الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) في مقدمة العلماء العرب الذين أولوا الجانب الصوتي اهتماما في دراساتهم، وشهد له بيرجستر على ذلك فقال: "وأول من وضع أصول هذا العلم - يقصد علم الأصوات - من العرب الخليل بن أحمد الفراهيدي"(١).

ويشكل تصنيفه للعين وفق مخارج الحروف دليلا على هذا الاهتمام، حيث درس الصوت اللغوي مفردا خارجا عن سياقه، وصنف الأصوات وفق مخارجها فابتدأ بالحلق وانتهى بالشفتين، ودرس لأجل ذلك أعضاء النطق، وقسم الحروف إلى مجموعات بناء على أسماء مواضعها التي تخرج منها فقال:

"الحلقية لأن مبدأها من الحلق وهي العين والحاء والهاء والخاء والغين والهمزة والقاف والكاف لهويتان لأن مبدأهما من اللهاة، والجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأهما من شجر الفم أي مَفرج الفم، والصاد والسين والزاء أسلية لأن مبدأهما من أسلة اللسان وهي مستدق طرف اللسان، والطاء والتاء والدال نطعية لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى".(٢)

وذكر الحروف الصحاح، وروى الليث أن الخليل قال: "في العربية تسعة وعشرون حرفا: منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا..... وأربعة أحرف جوف وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة" (٣).

---

(١) بيرجستر سير، التطور النحوي للغة العربية، ص٥.

(٢) الخليل، العين، ج١، ص٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٥٧.

وغير ذلك من الملاحظ الصوتية [١] التي تشهد بأن الخليل "ولا شك كان مرهف الأذن دقيق الحس بالأصوات" [٢].

ويرث سيبويه (ت١٨٠هـ) الوصف الدقيق لأصوات اللغة ومخارجها عن أستاذه الخليل ويرى أن أصل الحروف العربية "تسعة وعشرون حرفا"، [٣] ويسرد تحتها تلك الحروف ويوضح مخارجها وهي عنده "ستة عشر مخرجا فللحلق منها ثلاثة فأقصاها مخرجا: الهمزة والهاء والألف ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء وأدناها... ومن أقصى اللسان... ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس..."[٤].

ويقدم وصفا للحروف بناء على مخارجها فيقول "فأما المجهورة فالهمزة والألف... فالمهجور: حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه... وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جر النفس معه... ومنها الرخوة... ومنها المنحرف.... ومنها المطبقة والمنفتحة" [٥] [٦].

ويتابع المبرد (ت ٢٨٥هـ) تبيان عدد الحروف ويراها:-

"خمسة وثلاثين حرفا منها ثمانية وعشرون لها صور والحروف السبعة جارية على الألسن، مستدل عليها في الخط بالعلامات" [٧].

---

(١) ينظر: أحمد محمد قدور، أصالة علم الأصوات عند الخليل، ص٢٠ وما بعدها.

(٢) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٧٥.

(٣) سيبويه، الكتاب، ج٤، ص ٥٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٧٣.

(٥) سيبويه، الكتاب، ج٤، ٥٧٣-٥٧٥.

(٦) ينظر شرحا لذلك، تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص٥١-٦٣.

(٧) المبرد، المقتضب، ص١٩٢.

وبين مخارج الحروف فذكر الحلق وقسمه ثلاثة مواضع وذكر الشدق واللسان وأقسامه والشفتين والخياشيم وكرر معظم ما جاء في الكتاب من صفات للحروف مثل الهمس والجهر والرخاوة.

ويقدم ابن جني (ت ٣٩٢هـ) "أدق المساهمات وأوفرها نصيبا من العلمية" (١) حيث خص كتابه (سر صناعة الإعراب) بالأصوات وأودع (الخصائص) كثيرا من الملاحظات الصوتية، والمتأمل لعباراته يدرك مقدار "القوة العلمية والدقة الفائقة" (٢) التي تمتع بها ويتضح ذلك حين شبه الحلق بالناي وشبه مدارج الحروف ومخارجها بفتحاته التي توضع عليها الأنامل، فيلاحظ أن اختلاف وضع الأنامل في خروق الناي يؤدي إلى اختلاف الأصوات، وقد تناول ابن جني مجموعة من الدراسات الصوتية فقد تحدث عن:

أولا: حروف العربية وترتيبها.

ثانيا: وصف مخارج الأصوات.

ثالثا: تحديد الصفات العامة للحروف.

ويبدو أن أهم تلك الملاحظ تفريقه الصوت من الحرف وبيانه الفرق بينهما إذ "شمل تعدد الصوت الواحد أو ما يعرف اليوم بالفونيم"(٣) حيث قال "وليس غرضنا في هذا الكتاب ذكر هذه الحروف مؤلفة لأن ذلك يقود إلى استيعاب

---

(١) عصام نور الدين، علم الأصوات اللغوية، ص٧.

(٢) عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربية، ص١٠.

(٣) محي الدين رمضان، في صوتيات العربية، ص١٦.

جميع اللغة، وهذا مما يطول جدا، وليس عليه عقدنا هذا الكتاب وإنما الغرض منه ذكر أحوال الحروف منفردة، أو منتزعة من أبنية الكلم التي هي مصوغة فيها لما يخصها من القول في أنفسها". (١)

ويتضح التفريق بشكل جلي عندما قال "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفسِ مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها" (٢)

وإذا استمر مجموعة من العلماء بتكرار ما جاء به الخليل وسيبويه، فإنه لا يمكن نكران الجديد الذي قدمه ابن سينا (ت٤٢٨ هـ) في هذا المضمار فقد كان طبيبا استطاع أن يشرح الأسباب الفيزيائية المحدثة للصوت فقال "أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء ودفعه بسرعة وبقوة من أي سبب كان" (٣).

وقدم تشريحا للحنجرة واللسان فقال " أما الحنجرة فإنها مركبة من غضاريف ثلاثة...". (٤)

وقدم بعدها وصفا دقيقا لعملية خروج كل حرف من حروف العربية فقال:-

---

(١) ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج١، ص١٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٩.

ينظر: خليل ابراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، ص٣٠.

(٣) ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٤.

"أما الهمزة فإنها تحدث من حفز قوي من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير.... ثم اندفاعه إلى الانقلاع بالعضل الفاتحة وضغط الهواء معها" (١)

ولإخوان الصفا (في القرن الرابع) مساهمة في الدراسات الصوتية حيث عقدوا فصلا "في امتزاج الأصوات وتنافرها" (٢)،وفصلا في كيفية إدراك القوة السامعة للأصوات" (٣).

وشرحوا كيفية حدوث الصوت اللغوي منذ صدوره من المتكلم إلى أن يصل السامع فجاء من ذلك "وكل هذه الأصوات إنما هي قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام، وذلك أن الهواء لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها، فإذا صدم جسم جسما آخر، انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات... فمن كان حاضرا من الناس وسائر الحيوان الذي له أذن بالقرب من ذلك المكان، فبتموج ذلك الهواء بحركته يدخل في أذنيه إلى صماطية (خرق الأذن) في مؤخر الدماغ" (٤).

ووافق السكاكي (ت٦٢٦هـ) ما جاء به الخليل وسيبويه من الحديث عن مخارج الحروف التي هي عنده تسع وعشرون حرفا، وذكر للمهموس والمجهور وتعريفهما، ثم صنف المخارج والأصوات الخارجة منها فمن "أقصى الحلق الهمزة والألف

---

(١) ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص٧٢.

(٢) رسالة إخوان الصفاء وخلان الوفا، م٢، ص١٩٤.

(٣) المصدر نفسه، م٢، ص١٨٨.

(٤) المصدر نفسه، م٢، ص١٨٩.

والهاء... وما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو ومـــن الخياشـــيم مخـــرج النـــون الخفيفة"[١].

وامتاز عن سابقيه بمحاولة رسم شكل لمخارج الأصوات، فقد اكتفى الســـالفون بشرحها وقدم السكاكي رسما موضحا لها.

وأغنى علم القراءات والتجويد الدراسات الصوتية التي اعتنى بها من أجل ضبط القراءة، وبيان أحكام التجويد من الإدغام والإظهار والقلقلـــة، وأفـــرد ابـــن الجـــزري صفحات لمعالجة هذا الموضوع من حيث عدد حروف الهجاء ومخارجـــها وصفاتـــها واعتمد في معظم تلك الملاحظات على ما سبقه إليه الخليـــل وســـيبويه، إلا أنـــه قـــدم إضافات في حديثه عن صفات الحروف، فمن صفات الحروف إضافـــة إلـــى الجـــهر والهمس والشدة والرخاوة "المستقلة وضدها المستعلية والاستعلاء من صفات القوة وهي سبعة يجمعها قولك (قظ خص ضغط) وهي حروف التفخيم ... وقيل حروف التفخيم هي حروف الإطباق... ومنها الحروف المنفتحة وضدها المنطبقة والمطبقة: والانطباق مـــن صفات القوة وهي أربعة الصاد والضاد والطاء والظاء وحروف الصفـــير... وحـــروف القلقلة" [٢].

ولا يعني إيراد تلك الجهود أنها هي الوحيدة التي عرفها علماء العـــرب، فمـــا المعاجم وترتيبها إلا دليل على الحس الصوتي الـــذي أدركـــه علماؤنـــا كـــابن دريـــد

---

(١) السكاكي، المفتاح، ص٤٥.

(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، ص٢٠٢-٢٠٣.

والزمخشري، وإسهامات علماء البلاغة كالرماني وابن سنان الخفاجي وأبي بكر الباقلاني والجاحظ دليل على ذلك أيضا.

ومن عرض ما سبق نجد أن جل الدراسات الصوتية عند القدامى قد ركزت على النقاط التالية:-

أولا: تحديد عدد حروف العربية: وقد أدى اختلاف وجهات النظر تجاه الصوائت والهمزة إلى حدوث خلاف في هذه النقطة، ولو أنهم أدركوا الفارق بين الحرف المكتوب والصوت المنطوق لأمكن حل هذا الإشكال، وإن كان بعض العلماء قد أدركوا هذا الفارق كما لاحظنا عند ابن جني وعبارة ابن سينا حيث قال "الحرف هيئة للصوت عارضة له، يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميزاً في المسموع" (١).

ولكن الأمر لا يعني أن العرب وحدهم لم يمسكوا الفارق الدقيق بين الحرف والصوت "فقد ظل كثير من العلماء الأوروبين إلى عهد قريب يسلكون المسلك نفسه" (٢).

ثانيا: تبيان صفات الأصوات لا سيما صفتي الجهر والهمس وتعريفهما.

ثالثا: تحديد مخارج الأصوات من أقصى الحلق إلى أطراف اللسان، وتعيين الحروف المنطوقة من تلك المخارج.

---

(١) ابن سينا، رسالة أسباب حدوث الحروف، ص٦٠.

(٢) ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص١١٢.

رابعا: اعتماد "المنهج الوصفي" [١] في معظم النتائج التي وصلوا إليها.

خامسا: تنبه بعض العلماء إلى "علم الصوت السمعي" [٢] وهو فرع من الدرس الصوتي يهتم بدراسة الصوت من حيث انتقال ذبذباته في الهواء إلى أذن السامع وبيان أثرها السمعي.

وبهذا الإنتاج يكون القدماء قد قدموا جهدا تأسيسيا أصوليا لعلم الأصوات، وقد أسهم هذا الجهد في بناء الدرس الصوتي الذي وصلنا إليه اليوم، مع ملاحظة افتقارهم إلى الوسائل التي تكفل لهم التطبيق العملي لنظرياتهم، بيد أن هذا لم يمنعهم من إبداء الملاحظ الدالة على عمق التفكير عندهم.

ابن خلدون وعلم الأصوات

وقد تناول ابن خلدون الصوتيات في ثنايا مقدمته بمواقع وأجزاء مختلفة منها ولم يأت بها - كما حدث في الفصول السابقة - في موضع أو فصل واحد، فقد جاءت مبعثرة في أثناء حديثه عن مواضيع أخرى فقال: "اعلم أن الحروف في النطق، كما يأتي شرحه بعد، هي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة وأطراف اللسان مع الحنك والحلق والأضراس، أو بقرع الشفتين أيضا، فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع، وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر، وليست الأمم كلها متساوية في النطق

---

(١) خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، ص١٠٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١١.

بتلك الحروف، فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفا" (١).

ويحتوي هذا النص مجموعة من الآراء اللسانية وهي:-

أولا: تقديم تعريف للأصوات بطريقة تكشف تمايزها من الحروف من خلال النطق فقال الحروف في النطق، والحروف التي نطقت بها العرب، والأصوات عنده هي "الحروف في النطق وهي كيفيات الأصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة... فتتغاير كيفيات الأصوات بتغاير ذلك القرع وتجيء الحروف متمايزة في السمع" (٢).

ويشتمل تعريفه للأصوات جل النقاط التي أجمعت عليها التعاريف الحديثة من ضرورة وجود جسم يتذبذب ووسط تنتقل فيه الذبذبة وجسم متلق لهذه الذبذبات فالأصوات الخارجة من الحنجرة هي الأجسام المتذبذبة، وأعضاء النطق هي الوسط الناقل لها، وأذن السامع هي الجسم المتلقي للأصوات (التذبذب).

وبهذا يقدم خلاصة أجزاء مطولة من الكتب الحديثة التي أخذت تشرح العملية النطقية والإدراكية للمنظومة الكلامية.

فما هو الصوت عنده إلا ذلك "الأثر السمعي الذي يصدر طواعية عن تلك الأعضاء التي يطلق عليها اسم جهاز النطق" (٣).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٢٥٩.

(٢) خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، ص٦.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٢٥٩.

وقد ركز على دور السمع وأهميته في الإنتاج الصوتي لأن: "المقاطع المنطوقة هي انطباعات سمعية تدرك بالأذن" (١).

ويلتقي ابراهيم أنيس معه بشكل واضح في حديثه عن الصوت الإنساني الذي يراه ناشئا عن "ذبذبات مصدرها في الغالب الحنجرة لدى الإنسان فعند اندفاع النفس من الرئتين يمر بالحنجرة فيحدث تلك الاهتزازات التي بعد صدورها من الفم أو الأنف تنتقل خلال الهواء الخارجي على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن" (٢).

ثانيا: بيان أبرز أعضاء الجهاز النطقي، وذكر منها الحنجرة، وركز على دور اللهاة في تقطيع الأصوات، وأطراف اللسان والحنك والحلق والأضراس والشفتين، هذه الأعضاء التي قدمت لها الدراسات الحديثة شروحا لأجزائها وأعمالها الفيزيائية المختلفة (٣).

ثالثا: التغاير: فالأصوات عنده متغايرة متمايزة في السمع بناء على طريقة نطقها وخروجها من الأعضاء النطقية، وتشير هذه العبارة إلى ما وصل إليه العلماء المحدثون في دراساتهم الصوتية من تمايز الأصوات بناء على مخارجها، والبنى الصوتية التي تتشاكل عليها، وقد اتخذ هذا المفهوم مصطلحات متعددة كان منها (الاستبدال) أو (القيم الخلافية) كما يراها تمام حسان حيث تخضع الأصوات عنده "للاختبار بوضعه بإزاء كل صوت آخر على حدة واعتباره مما ينتمي إليه أو لا

---

(١) فردينان دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، ص٣٠.

(٢) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٩.

(٣) جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية ص١٧-٣٨.

أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي ص ٢٦٩-٢٧٨.

ينتمي إليه هذا الصوت الآخر، حتى نصل في النهاية إلى تحديد انتماءات الأصوات كلها" [١] وبواسطة القيم الخلافية "تتمايز وظائف الأصوات في الكلمات".[٢]

ومن هذا التمايز في إصدار الأصوات تتركب "الكلمات الدالة على ما في الضمائر"[٣] ذلك لأن الأصوات أثناء وضعها إزاء بعضها تؤثر فيما بينها "فيؤثر الصوت السابق بالصوت اللاحق كما يؤثر الصوت اللاحق بالصوت السابق... فللصوت وظيفة في تغيير المعنى وتحديده وتمييزه من غيره" [٤].

واتخذ مفهوم التغاير أو التمايز مصطلحا آخر هو (الأصوات اللغوية أو الصوتيمات) وهي: "سلسلة من الوحدات اللغوية الصغيرة المكونة للكلمات... وتملك القدرة على التمييز بين كلمة وأخرى" [٥].

ولاحظ ميشال زكريا إدراك ابن خلدون مفهوما وضعيا تقوم عليه دراسة الأصوات وتحليلها هو مفهوم التغاير والتمايز فقال: "لاحظ ابن خلدون مسألة مهمة من أهم مسائل الدراسات الصوتية العامة، وهي مسألة تحديد الفونيم كوحدة صوتية مميزة"[٦].

---

(١) تمام حسان، اللغة العربية، ص٧٥.

(٢) المرجع نفسه، ص٧٥.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج ١ ، ص٢٥٩.

(٤) عصام نور الدين، علم الأصوات اللغوية، ص٨.

(٥) بيتر ب نيس، المنظومة الكلامية، ص ٢٦.

(٦) ميشال زكريا، الملكة اللسانية، ص٥١.

وبهذا أدرك ابن خلدون ما توصل إليه العلم الحديث من أن هناك "وحدات صوتية يمكن عن طريقها التفريق بين المعاني" (١) مثل دار وسار فالراء وتغايرها مع السين هي التي فرقت بين معنى الكلمتين دون أن يستخدم المفهوم الحديث لها (الفونيم).

فقد لاحظ ابن خلدون أن ذلك التغاير في إنتاج الأصوات يؤدي إلى تمايز في الكلمات، وهي الوظيفة التي توصل لها الدرس الحديث للفونيم، فوظيفة الفونيم "التمييز بين الكلمات وإعطاؤها قيما لغوية مختلفة: صرفية أو نحوية أو دلالية نقول لكَ بفتح الكاف ولكِ بكسرها فيحصل تمييز صرفي نحوي ويتبعها في الحال تمييز دلالي". (٢)

وبعد أن تقدمت الدراسات واتسعت، أدرك المختصون أن للعربية أربعة أقسام من الفونيمات هي " ١. ثلاثة فونيمات للعلل القصيرة ٢. ثلاثة فونيمات للعلل الطويلة ٣. فونيمان لأنصاف العلل ٤. سبعة وعشرون فونيما للسواكن" (٣).

وبين ابن خلدون أن مخارج الحروف مرتبطة بالجهاز الصوتي الإنساني وتتقطع الأصوات اللغوية لتنتج وحدات متمايزة تحدد من خلال الاستعمال اللغوي، وهذه الأصوات هي التي تؤلف الكلام "وتجيء الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر" (٤).

---

(١) محمد علي الخولي، الأصوات اللغوية، ص٥٨.

(٢) كمال بشر، علم اللغة العام، ص١٥٨.

(٣) أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص٢٦٧.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص٢٥٩.

وفي حديثه عن دلالة الكلمات عما في الضمائر ربط مع ما توصل إليه فردينـلن دي سوسير من اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول [١].

وينظر دي سوسير إلى هذه الاعتباطية على أنها مبدأ أساسي "لأنه ينطبق علـى كل العناصر المادية للغة بالإضافة إلى الوحدات الصوتية (الفونيمات) تشكل كـل لغـة كلماتها بناء على قواعد من نظام من عناصر مصوتة، يكون كل عنصر فيـها وحـدة محددة واضحة... إن الوحدات الصوتية لا تتميز كما يمكن أن يعتقد، بصفتها الإيجابيـة ولكن بواسطة الحقيقة التي توضحها الوحدات الصوتية" [٢].

ويبدو أن العنصر الصوتي "يتحدد من خلال تمايزه عـن العنـاصر الصوتيـة الأخرى وهذا ما أدركه ابن خلدون وأشار إليه بوضوح" [٣].

ويترتب - منطقيا - على اعتباطية اللغة نقطة جديدة هي:

رابعا: عدم تساوي الأمم في النطق بالحروف، فقد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى، فأدرك ابن خلدون هذا الاختلاف في الأصوات واستخداماتها عند الأمـم وهو ما أكده العلماء المحدثون الذين يرون أن كل لغة تقدم "تنظيما محـددا لـهذا الاختيار وترتيبا للأصوات يختلف من لغة إلى أخرى" [٤].

---

(١) ينظر بسام بركة، علم الأصوات العام، ص١٨.

(٢) فردينان دي سويسر، فصول في علم اللغة العام، ص٢٠٦.

(٣) ميشال زكريا، الملكة اللسانية، ص٥٣.

(٤) بسام بركة، علم الأصوات العام، ص٩٤.

وتعبر الأقوام البشرية اليوم عن أغراضها "بأربعة آلاف لغة يشكل أفراد كل لغة منها جماعة لغوية متميزة بنطق الأصوات ونظمها وتوزيعها وتنغيمها ودلالتها، مكونة بذلك أنظمة اللغة المعينة الصوتية والصرفية..." (١).

ويمكننا أن نضيق هذا الاختلاف في النطق بالحروف ليس من أمة لأخرى فحسب بل من شخص لآخر، وهذا ما لاحظه العلماء المحدثون عندما رأوا أن "نطق أبناء اللغة الواحدة للصوت الواحد وفي الكلمة الواحدة، والعبارة الواحدة، قد يختلف من إنسان إلى آخر - بل قد يختلف عند الإنسان الواحد - نتيجة عوامل عدة منها ما يتعلق بجهاز النطق والصفات الوراثية..." (٢).

وقدم ابن خلدون رأيا في استحسان الألفاظ وعدمه بناء على أصوات تلك الألفاظ فقال: "والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة، وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك، والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن، **فأولا** أن لا يخرج من الصوت إلى ضده دفعة بل يتدرج، ثم يرجع كذلك وهكذا إلى المثل، بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فإنه من بابه **وثانيا** تناسبها في الأجزاء كما مر أول الباب، فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل مناسبا" (٣).

---

(١) عصام نور الدين، علم الأصوات (الفونيتيكا)، ص١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٨.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص٩٦٦-٩٦٧.

وفي هذا النص ذكر لصفات الحروف من الهمس والجهر... دون تقديم شرح لها لأن سابقيه أفرطوا في ذلك، لذا فضل الحديث عن مقياس الأصوات المستحسنة الذي هو التناسب وعدم التنافر بين الأصوات.

وهذا ما تطرق إليه ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة بشيء من التفصيل.

ويتوافق هذا التناسب مع ما يسميه المحدثون بالانسجام الصوتي الذي هو "ظاهرة صوتية، تحدث في مقاطع الكلمة الواحدة والمقاطع المتجاورة، نزوعا إلى التوافق الحركي واقتصادا في الجهد المبذول". (١)

ومن أجل توضيح أساليب الإنسان في التعبير عن مقاصده فرق في الجزء الرابع بين الأصوات المنطوقة والحروف المكتوبة فقال "وذلك البيان إنما يكون بالعبارة وهي الكلام المركب من الألفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف وهي كيفيات الأصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم، وهذه رتبة أولى في البيان عما في الضمائر... وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدى بها ما في الضمير... وهذا البيان منحصر في الكتابة وهي رقوم باليد تدل أشكالها وصورها بالتواضع على الألفاظ النطقية حروفا بحروف وكلمات بكلمات" (٢).

---

(١) خليل ابراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، ص٧٥.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٢٥.

بصاحب هذا التحريك من آثار سمعية، ولكن الحرف لا ينطق وإنما يفهم في إطار نظام من الحروف يسمى النظام الصوتي للغة".(١)

وبعد أن عرضنا لآراء ابن خلدون في الدرس الصوتي ومدى صلتها بالدراسات الحديثة يمكننا أن نتبين أبرز ملامح المنهج الصوتي عنده وهي:-

أولا: اعتماد المنهج الوصفي*: وهو منهج اعتمده علماؤنا القدامى والمحدثون، وبه تم وصف العربية وجهازها الصوتي.

ثانيا: عرف ابن خلدون الصوت وبين طبيعته مظهرا جملة من خصائصه كالجهر والهمس، وكشف أثره السمعي، وجملة من المباحث التي تنتمي إلى علم الصوت السمعي.

ثالثا: درس ابن خلدون الوجه المادي لأصوات اللغة البشرية، فركز على العناصر الصوتية من حيث كونها أحداثا منطوقة تتمتع بتأثير سمعي معين دون النظر إلى قيم استعمالاتها، ويندرج هذا تحت علم الأصوات العام (الفوناتيك).

---

(١) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص٧٤.

* المنهج الوصفي: يدرس هذا المنهج "اللغة أو اللهجة عن طريق الوصف الدقيق لأصواتها ومقاطعها وأبنيتها الصرفية وتراكيبها النحوية"(١) " في فترة تاريخية معينة"(٢) "أي أنه يبحث اللغة بحثا عرضيا لا طوليا"(٣) وقد سيطر هذا المنهج على الدراسات اللغوية بفضل جهود "دي سوسير الذي أشار إلى أن موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها.... ويهتم المنهج الوصفي بواقع الظاهرة اللغوية في ضوء ما يسمى بـ اللغة المنطوقة".(٤)

(١) محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص١١٦.

(٢) ماريو باي، أسس علم اللغة، ص٣٦.

(٣) محمد السيد علي بلاس، مدخل إلى البحث اللغوي، ص٤٥.

(٤) محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص١١٦، ١١٧.

رابعا: اهتم في مواقع من نصوصه الخاصة بالدرس اللغوي بوظائف الأصوات ودورها في المنظومة الكلامية، وأبرز دور الاختلافات الصوتية في فهم المرسلة اللغوية، وينتمي هذا إلى علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا).

رابعا: الملكة

الملكة عند بعض علماء العربية

تفطن العرب القدماء إلى مفهوم الملكة اللسانية، وقد ورد عندهم هذا المفهوم تحت عدد من المسميات التي تنتظم ضمن نسق واحد وتحمل حدا مشتركا يكشف عن دلالتها، ومن هذه المسميات: الصناعة، العادة، المنوال.

ويرى الفارابي (ت ٣٣٩هـ) أن الملكة تتحصل نتيجة اعتياد الأفعال وتكرارها وفي ذلك يقول: "للملكات الحاصلة عن اعتياد تلك الأفعال من أخلاق أو صنائع وللأفعال الكائنة عنها بعد أن حصلت ملكات عن اعتيادهم"(١).

ووضح أن هذا الاعتياد لا بد فيه من التكرار المشروط بالمرات العديدة والزمان الطويل، والأوقات المتقاربة حتى تتحصل الملكة في نهاية المطاف فيقول: "والذي يكتسب به الإنسان الخلق أو ينتقل لنفسه عن خلق صادفها عليه، هو الاعتياد وأعني بالاعتياد تكرير فعل الشيء الواحد مرارا كثيرا زمانا طويلا في أوقات متقاربة"(٢).

ويستخدم أبو حيان التوحيدي (ت٤٠٠هـ) لفظة العادة للتعبير عن الملكة التي يراها متحصلة من التكرار للأفعال فيقول: "قيل فما العادة؟ قال: حال يأخذ بها المرء

---

(١) الفارابي، الحروف، ص١٣٨.
(٢) رسائل الفارابي، التنبيه على سبيل السعادة، ص٥٦.

نفسه من غير أن تكون مسنونة يجري عليها مجرى ما هو مألوف طبيعي قال أبو سليمان: كأن هذا الاسم ليس يخلص إلا لمن أتى شيئا مرارا، فأما في أول ذلك فليس له هذا النعت، وإنما يصير مألوفا بالتكرار"[١].

ويتطرق مسكوية (ت ٤٢١هـ) إلى الملكة في أثناء تعريفه للخلق، ويرى أن الملكة تكون اختيارية قصدية في بدايتها أما بعد اكتسابها عن طريق التدرب المتواصل تصبح غير قصدية، فيقول: "الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية... ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا"[٢].

ويذهب أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) إلى أن طريق تحصيل الملكة – التي عبر عنها بكلمة الطبع – لا يتم إلا عن طريق التكلف الذي قصد به التكرار المقصود فيقول: "الخلق عبارة عن هيئة للنفس يصدر عنها الفعل بسهولة من غير روية وتكلف لكن التكلف هو طريق تحصيل الخلق فإنه لا يزال يتكلف أولا حتى يصير ذلك طبعا وعادة".[٣]

ويفرق الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) بين الصفة الراسخة في النفس التي يعدها ملكة والصفة سريعة الزوال ويعدها حالة فيقول في تعريف الملكة: "هي صفة راسخة في النفس وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال، ولا يقال لتلك

---

(١) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج٣، ص١٣٢.

(٢) مسكوية، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص٣١.

(٣) أبو حامد الغزالي، كتاب الأربعين في أصول الدين، ص١٣٧.

الهيئة كيفية نفسانية، وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخلقا"(١).

والذي يبدو واضحا أن مفهوم الملكة تدرج على أيدي علماء العربية حتى تكامل عند ابن خلدون الذي مد في هذا المفهوم بطريقة كونت نظرية مترامية الأطراف يصدر عنها في تفسيره لكثير من ملامح الظاهرة اللغوية، حيث لم يحظ موضوع من مواضيع علم اللسان بالأهمية التي حظيت بها الملكة اللسانية عنده، فقد سيطرت على الجزء الأكبر من مقدمته، فخصها بالتفصيل والتبيان ووضح طرق اكتسابها وتحصيلها.

ولم يقف عند هذا الحد بل قدم تفاسير لكثير من القضايا الإعرابية والنحوية والأدبية النثرية والشعرية انطلاقا من إيمانه العميق بالملكة فكأنّها مثلت النظرية الأساسية التي انطلق منها في توضيح آرائه اللغوية حيث ألحت عليه الفكرة طويلا فتشبع فكره بها، ولعلمه بغربتها عن الفهم المتداول المألوف، حاول كثيرا أن يؤكد فهمها في الذهن، وأن يوضحها في كل جانب من جوانبها، بتتبعها في كل نواحيها.

مفهوم الملكة عند ابن خلدون

من أجل تعيين مفهوم الملكة عند ابن خلدون لا بد من ملاحظة النقاط التالية:-

أولا: استخدم ابن خلدون لفظتي: الجبلة والطبع للتعبير عن الملكة، فعند حديثه عن الملكة ودورها في أداء الدلالة عد الجبلة مساوية للملكة فقال: "... وإذا كانت

---

(١) الجرجاني، التعريفات، ص١٢٠.

ملكته في تلك الدلالات راسخة بحيث تتبادر المعاني إلى ذهنه من تلك الألفـــاظ عند استعمالها شأن البديهي والجبلي زال ذلك الحجاب بالجملـــة عـــن المعـــاني والفهم"[١].

واستخدم الطبع مساويا للملكة فقال: "إن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة"[٢].

وقد أدرك أنّ هناك فرقا بين الطبع والملكة، فالجامع بينهما أنـــهما: تحصـــلان بالمران والقدم، أما الملكة فهي أمر اختياري، والطبع يحـــدث دون فكـــر ولا تعـــب: "الأفعال الاختيارية كلها ليس شيء منها بالطبع وإنما هي تستمر بالقدم والمران حتـــى تصير ملكة راسخة فيظنها المشاهد طبيعية"[٣].

وأظهر الفرق بين الجبلة والطبع من جهة والملكة من جهة أخرى عندما بيـن أن كلام العرب ليس طبعا دون تعلم، إنما هو ملكة مترسخة لدرجة أنها أصبحت لاشعورية حتى يظن أنها طبع وجبلة "فإن الملكات إذا استقرت ورسخت ظهرت كأنـــها طبيعيـــة وجبلة لذلك المحل، ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعـــرف شـــأن الملكـــات أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعي، ويقول كـــانت العـــرب تنطـــق بالطبع، وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت فـــي بادئ الرأي أنها جبلة وطبع"[٤].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤ ، ص١٢٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٩.

ثانيا: يرى ابن خلدون أن الملكة صفة إنسانية راسخة، تمكن الإنسان من القيام بالأعمال العائدة إليها فيقول: "إن الملكات صفات للنفس وألوان، فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا لحصولها"(١).

وفي هذا التقاء مع التعريف النفسي للملكة الذي يراها كما يلي: "الملكة Faculty قدرة نفسية من مثل التخيل والذاكرة والإرادة للقيام بعمل معين، وكانت سيكولوجية الملكات تاريخيا تفسر الحوادث النفسية بإرجاعها إلى فاعلية الملكات"(٢).

وتتحصل هذه الصفة الراسخة عند ابن خلدون نتيجة استعمال الفعل وتكراره "والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته"(٣).

ويمر هذا التكرار عبر مجموعة من المراحل إلى أن يصبح ملكة، حيث أن تكرار الفعل في مراحله الأولى يعد عنده صفة، "إذا حلت محلا اتصف بها"(٤).

ثم تتكرر هذه الصفة لتصبح حالا، لكنها متغيرة وغير راسخة إلى أن تتكرر وتصبح ملكة: "لأن الفعل يقع أولا وتعود للذات منه صفة، ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرر فتكون ملكة"(٥).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص٩١٥.

(٢) فاخر عاقل، معجم علم النفس (إنكليزي - فرنسي - عربي) ص٤٣.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص٩٣٧.

(٤) محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، ص١١٢.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٩.

وبما أن هذه الملكة تمر عبر مراحل فهذا يعني أنها لا تتحصل دفعة واحدة: "إن الملكات ... لا تزدحم دفعة"[١].

ويتأثر علي النوري بتعريف ابن خلدون للملكة، فيعرف الملكة اللغوية بأنها: "مهارة لغوية مكتسبة، كسائر المهارات، يسيطر بها على العربية، وتستجاد بالمران والدربة"[٢].

ثالثا: ينظر ابن خلدون للسان على أنه آلة الملكة اللغوية وموضع لها فيقول:

"اللغة ملكة في اللسان"[٣]، ويقول: "اللغة ملكة في اللسان وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد"[٤].

الملكة اللغوية مغايرة لصناعة العربية وقواعدها

وتتضح هذه الفكرة من خلال الفصل الذي أسماه "فصل في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم"[٥].

فالملكة اللغوية قائمة بذاتها مختلفة عن صناعة العربية، بل إن صناعة العربية ليست واجبة لحصول الملكة، فالملكة تستقيم بشكل مستقل عن صناعة العربية "فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية، وأنها مستغنية عنها بالجملة"[٦].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٣، ص٩١٥.

(٢) علي محمد النوري، السليقة اللغوية عند العرب، مجلة الدعوة الإسلامية، ليبيا، ع١٤ - (١٤٢٧هـ ١٩٩٧م)، ص٢٢٧.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٥٢.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٦.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٧.

فهو يرى الفرق بين صناعة العربية وملكتها كالفرق بين معرفة العلم بالشـــيء ونفس الشيء "ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكـــة ومقاييســها خاصة، فهو علم بكيفية وليس نفس كيفية، فليست نفس الملكة، إنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما، ولا يحكمها عملا"(١).

وهذا ما أكدته التربية الحديثة التي ترى أن اللغة لا تقتصر علـى حقـائق يتـم تلقينها للناشئ "إنما هي عبارة عن مجموعة من المهارات التي يكتسبها الإنســان فـي حياته... وبما أن هذه المهارات لا يتم تعلمها إلا عن طريق التدريب الواعـــي المنظـم فكذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة إذ لا بد من التدريب على إتقان مهاراتها فـــي المحادثـة والاستماع والقراءة والكتابة حتى يصبح استعمالها عادة ميسرة وسهلة"(٢).

ومن هنا يتضح أن تحصيل ملكة العربية يتم عبر "ممارسة كلام العرب وتكرره على السمع... وليست تحصّل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان"(٣).

وبهذا نجده يميز بين مرحلتين من المعرفة: مرحلة المعرفة النظريـــة ومرحلـة المعرفة العملية التطبيقية "وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفســها فـإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل"(٤).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٦.

(٢) محمود أحمد السيد، الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها، ص٢١.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٩.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٧.

وقد نجد الكثير من العالمين باللغة ونحوها غير قادرين على التعبير عن مرادهم بشكل يوافق معايير الصواب، وفي ذلك يقول: "كذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو... أخطأ عن الصواب وأكثر من اللحن... وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول... ولا شيئا من قوانين صناعة العربية"(١).

وكرر الفكرة ذاتها عندما قال "من عرف تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء، إنما حصل أحكامها"(٢).

وسبق ابن جني ابنَ خلدون في بيان الفكرة عندما وضح أن العربي كان قادرا على التكلم السليم بالفصحى، وذلك بالفطرة من المجتمع العربي الذي كان يتكلم هذه اللغة ولا يعرف قواعدها أو قوانينها "لأنه وإن لم يعلم حقيقة تصريفه بالصنعة فإنه يجده بالقوة"(٣).

وجاءت هذه الفكرة عند عبد القاهر الجرجاني الذي بين أنه: " لو كان النظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط ولم يعرف الخبر وشيئا مما يذكرونه لا يتأتى له نظم كلام، وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٨١.

(٣) ابن جني، الخصائص، ج٣، ص٢٧٥.

النحو"[١]، لكن الأقوال السابقة لا تمنع أن نجد "بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيرا بحال هذه الملكة"[٢].

وهكذا نجد أن ابن خلدون "يلتزم بتحديد علمي دقيق للموضوع الذي يتكلم عنه فاللغة قبل كل شيء ملكة لسانية عند متكلمها، والملكة اللسانية هذه ليست القواعد التي تنص الكتب اللغوية عليها إنما هي المعرفة القائمة عند متكلم اللغة"[٣].

ونلحظ مثل هذا التمييز بين الملكة اللغوية والقواعد اللغوية عند أصحاب النظرية التوليدية، التي تفرق بين الكفاية اللغوية والأداء اللغوي، فهناك فرق بين الاستعداد للكلام والكلام نفسه "والأول هو الذي يصح أن يطلق عليه الخليقة والفطرة، وأما الثاني فيكتسبه الإنسان من المجتمع الذي يعيش فيه كما يكتسب كل المظاهر الاجتماعية الأخرى"[٤].

وهنا يظهر سؤال مفاده: ما الذي يجعل الطفل أو الناشئ قادرا على اكتساب اللغة؟

ترى نظرية التوليد والتحويل أن الطفل مزود بقدرة تمكنه من إنتاج الجمل وتفهمها في عملية تكلم اللغة، وهذه القدرة هي الكفاية اللغوية التي هي "القدرة البيولوجية التي تمثل ملكة اللغة (Language Faculty) الإنسانية... وهي المكون

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٦٨.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٧.

(٣) ميشال زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ص٢٥.

(٤) محمد عيد، في اللغة ودراستها، ص١٥.

الفطري للعقل... الذي يتولد عنه معرفة اللغة إذا ما قدمت له التجربة اللغوية"[١]، فهي القدرة على تحوّل التجربة إلى نظام من المعرفة.

وهذا يظهر أن الناشئ يملك قدرات "فطرية تساعده على تقبل المعلومات اللغوية وعلى تكوين بنى اللغة خلالها، هذا يعني أنه مهيأ بطريقة أو بأخرى لأن يكوّن قواعد لغته الأم، من خلال الكلام الذي يسمعه وأن يمتلك بطريقة لاشعورية القواعد التي تكمن ضمن المعطيات اللغوية التي يتعرض لها"[٢].

وهذه القدرة ناشئة عن أمرين: "فطرية اللغة والخبرة اللغوية فالإنسان مفطور على قدرة تعلم لغة ما ولكن هذه الفطرة لا تكفي إذا لم يتعرض الطفل لخبرات لغوية معينة"[٣] وهذه القدرة ليست خاصة بلغة محددة بعينها إنما هي قدرة يمتلكها شخص ما لاكتساب اللغة بشكل عام وليس لاكتساب لغة بعينها دون غيرها.

ويعد الاستعداد الفطري ملكة لاشعورية تجسد العملية الآنية التي يؤديها متكلم اللغة بهدف صياغة جُمله "وذلك طبقا لتنظيم القواعد الضمنية الذي يربط بين المعاني والأصوات اللغوية"[٤]، وتشبه هذه القدرة رصيدا مخزونا في الدماغ يحتوي مختلف مستويات النظام اللغوي، فكأن السلوك الكلامي عائد إلى حقيقة عقلية خارجة عن حدود الملاحظ والإدراك الحسي، وهذا كله يجعل ذهن المتلقي الناشئ أشبه "بآلة مزودة

---

(١) نوعم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها ص٤٤.

(٢) ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ص١٣٥.

(٣) محمد الخولي، مدخل إلى علم اللغة، ص٢٠.

(٤) ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص٤٥.

بمعلومات معينة وتقوم بعمل محدد، فيشبّه ذهن الطفل بآلية مبرمجة هيأتها الطبيعة البشرية لإتمام عملية تعلم اللغة"[١].

وبهذا يتضح أنه: "يستحيل النفاذ إلى الكفاية بصورة مباشرة إذ لا يمكن إلا استنتاجها انطلاقا من أفعال الأداء اللغوي"[٢]، وهذا يعني أن الكفاية تتجلى وتظهر في "أفعال الكلام أو في الأداء اللغوي"[٣].

ويتمثل الأداء على شكل "كلام أو كتابة... فالأداء لساني أو كتابي ظاهر"[٤] ويشكل هذا الأداء استعمالا آنيا للغة ضمن نسق معين والنتيجة المنطقية التي تبدو هنا أن: "الأداء يفترض سلفا القدرة، بينما لا تفترض القدرة سلفا الأداء"[٥].

ومن خلال ما ذكر يمكننا ملاحظة الخطوط المشتركة بين فهم ابن خلدون وتشومسكي لهذا الموضوع، الذي قدم له ميشال زكريا[٦] عرضا من خلال نقاط أوضح فيها أوجه الشبه بينهما، فالمتكلم لا يستطيع إنتاج اللغة التي هي مجموعة من الرموز والقواعد والدلالات ما لم يكن ملما بهذه القواعد، لكن هذا لا يعني أنه ملم بصورة مباشرة بهذه القواعد بل اكتسبها خلال نموه اللغوي، فمراد ابن خلدون مؤاده أن الملكة تفترض المعرفة الضمنية لقواعد اللغة في حين لا تعني معرفة القوانين الإعرابية امتلاك

---

(١) جورج كلاس، الألسنية ولغة الطفل العربي، ص١٥٦.

(٢) مارك ريشل، اكتساب اللغة، ص٣٢.

(٣) المرجع نفسه، ص١٢.

(٤) محمد الخولي، مدخل إلى علم اللغة، ص٢١.

(٥) جون ليونز، اللغة وعلم اللغة، ص١٣.

(٦) ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، ص١١١-١١٤.

الملكة اللسانية، فإذا كانت معرفة قواعد اللغة مغايرة للملكة اللغوية وتحصيلها فما هـــي وظيفة القواعد عند ابن خلدون.

القواعد عند ابن خلدون وسيلة لتعليم اللغة

رأينا طريقة ابن خلدون في انتقاد النحاة الذين اتخذوا قوانين العربية صناعة في حد ذاتها لتحصيل ملكة اللسان العربي، وهم لا يحسنون التعبير السليم بسبب إهمالـــهم الجانب العلمي، وانتقد أهل المغرب وإفريقيا الذين جعلوا قوانين العربية غاية حيث قال: "وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربيـــة مجـرى العلوم بحثا... فأصبحت العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل، وبعدت عن مناحي اللسان وملكته... وتلك القوانين إنما هي وسيلة للتعليم، لكنهم أجروها علـــى غير ما قصد بها وأصاروها علما وبحثا وبعدوا عن ثمرتها"(١).

وقد حصر قوانين اللغة في كونها وسيلة فقط، لأنها عنده من العلوم الآلية التـــي لا يتوسع بها، بخلاف العلوم المقصودة كالشرعيات والحديث التي يتوسع بها، فيقول في ذلك "اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصـــودة بـــالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه... وعلوم هي آلية وسيلة لهذه العلوم كالعربيـــة والحساب فأما العلوم التي هي مقاصد، فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المســائل واستكشاف الأدلة والأنظار، فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته وإيضاحـــا لمعانيـــها المقصودة، وأما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغـــي أن

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٨.

ينظر فيها إلا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرغ المسائل"(١).

ويظهر ابن خلدون علة عدم التوسع في العلوم الآلية بقوله: "لأن ذلك مُخرج لها عن المقصود إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير، فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود، وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها، مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعا للعمر وشغلا بما لا يعني"(٢).

ويؤكد ابن خلدون فكرته هذه بالأدلة التي قدمها حول النحو والمنطق وأصول الفقه حيث يقول: "وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لأنهم وسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات مما أخرجها من كونها آلة وصيرها من المقاصد، وربما يقع فيها أنظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي نوع من اللغو، وهي أيضا مضرّة بالمتعلمين على الإطلاق لأن المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد، ولهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يستبحروا في شأنها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويبقوا به عنده"(٣).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٣٨-١٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٣٩.

ونشير إلى أن ابن خلدون لم يعن من وراء ذلك رفض التبحر في علوم العربية فقد أجازه بعد تحصيل ملكة اللغة فقال: "فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوغل فليرق له ما شاء من المراقي صعبا أو سهلا"(١).

ويتفق تمام حسان وابن خلدون في عد اللغة بالنسبة للمتكلم مغايرة للغة عند الباحث العالم في أسرارها لأن "اللغة بالنسبة للمتكلم معايير تراعى وبالنسبة للباحث ظواهر تلاحظ، وهي بالنسبة للمتكلم ميدان حركة، وبالنسبة للباحث موضوع دراسة وهي بالنسبة للمتكلم وسيلة حياة في المجتمع، وبالنسبة للباحث وسيلة كشف عن المجتمع"(٢).

ومراد ابن خلدون من حديثه هو اتخاذ قواعد العربية وقوانينها غاية للدراسة وأجاز ذلك لمن يسره الله ووفقه بفطرته للعمل المتخصص شرط تحصيل ملكة اللسان أولا.

وتتفق نظرة ابن خلدون مع كثير من أنظار دعاة التيسير في دراسة العربية وقواعدها، الذين نفروا من مذاكرة القواعد لذاتها دون توظيفها وتطبيقها في الحياة وفي ذلك يقول محمد الإبراهيمي: "امزجوا لهم العلم بالحياة والحياة بالعلم يأت التركيب بعجيبة ولا تعمر أوقاتهم كلها بالقواعد فإن العكوف على القواعد هو الذي صير علماءنا مثل القواعد، وإنما القواعد أساس فإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتم البناء"(٣).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٣٩.

(٢) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص٦.

(٣) محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج٢، ص٣٠٠.

وانطلاقا من إدراك ابن خلدون لمغايرة الملكة اللغوية لقواعدها فقد عـــد اللغـــة ملكة صناعية.

اللغة ملكة صناعية

وتتضح هذه الفكرة عند ابن خلدون من خلال الفصل الذي عقده باسم:-

"فصل في أن اللغة ملكة صناعية"[١] إذ يقول: "اعلم أن اللغات كلـــها ملكـــات شـــبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها"[٢]، وأراه قصد من هذا الفصل إمكانيـــة تحصيـــل الملكـــة اللغويـــة واكتسابها بطريقة صناعية بالرغم من ذهاب إمكانية مخالطة العرب الأقحاح لأن اللغات عنده "شبيهة بالصنائع"[٣]، وهنا يظهر سؤال مفاده: ما الأسباب التي دعت ابن خلـــدون إلى تقرير اكتساب الملكة صناعيا؟

يوضح ابن خلدون أن فساد الملكة اللغوية بمخالطة العرب للأعاجم هو ما دعـــاه إلى ذلك فيقول: "وخالطوا العجم فتغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفـــات التي للمتعربين من العجم"[٤]، ولذلك قيل أهل العربية بالاحتجاج بكلام من كان أبعد مـــن الأعاجم وأقرب إلى الملكة السليمة فكانت "قريش أفصح اللغـــات العربيـــة وأصرحـــها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل... وعلى نســـبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحـــة والفســـاد عنـــد أهـــل الصناعـــة

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٨٩.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٥٥.

العربية"[١]، وبسبب مخالطة العجم أخذ الناشئة من الجيل يسمعون أساليب جديدة في التعبير عن أغراضهم مغايرة للتعابير العربية التي ألفوها، فاختلط عليهم الأمر، مما أدى إلى ظهور ملكة ناقصة عن الملكة العربية الأولى، وبهذا الخصوص يقول: "وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصودة لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى وهذا معنى فساد اللسان العربي"[٢].

ويؤكد ابن خلدون على أهمية السمع في اكتساب اللغة ودوره في تحصيل ملكة سليمة أو فاسدة، فيقول: "فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم، والسمع أبو الملكات، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع"[٣].

ولم يكن هؤلاء الأعاجم صنفا واحدا فقد خالط العرب ساكني البلاد المفتوحة مما أدى إلى ظهور مجموعة مختلفة من صور التعابير عن الأغراض المتباينة فيقول: "حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب، وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت أولا فانقلب لغة أخرى"[٤].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٥٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧١.

أما عن رأي ابن خلدون في قضية تحصيل الملكة فإنه بالرغم من ذهاب القدرة على تحصيل الملكة اللسانية واكتسابها جبلياء "إلا أن اللغات لما كانت ملكات - كما مر- كان تعلمها ممكنا شأن سائر الملكات"(١).

وأبان ابن خلدون المراحل التي يتم من خلالها اكتساب اللغة وجاءت على النحو التالي:

أولا: السماع: "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم، وهكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال"(٢).

وهكذا يربط ابن خلدون بين المنشأ الطبيعي واكتساب اللغة وأول ما يتقرر لديه في هذا المضمار "أن الاكتساب يتم عن طريق المنشأ الطبيعي وبشكل متدرج"(٣).

ويكشف ابن خلدون العلاقة بين البيئة واكتساب اللغة التي ينشأ فيها لأن الطفل بمقدوره إكمال هذه العملية عبر مراحل نموه في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية. ويكتسب لغة المجتمع الذي يتعرض فيه لكلام أهله.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٩.

(٣) ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، ص١٠٩.

ويبين الاتجاه السلوكي أثر البيئة في تعلم اللغة حيث أن "السلوك الكلامي يتعزز بتوسط أفراد البيئة المحيطة بالطفل ويضع على عاتق هذه البيئة مسؤولية العمل على جعل الطفل يكتسب لغتها، فالأهل في تصوره هم مصدر المعطيات اللغوية التي يتعرض لها الطفل"(١).

ويؤدي السماع إلى تكوين المدونة اللغوية* لدى الطفل التي يعمل من خلالها على "استنباط قواعد لغته بصورة ضمنية بحيث يحصل على الملكة اللسانية التي تتيح له التعبير عن مقاصده من خلال مخالطة كلام أهل بيئته"(٢).

وهكذا تشكل السماع عنده وفق منهجية مفادها سماع المفردات وتلقنها أولا ثم سماع التراكيب ومحاكاتها وأخيرا تكرار ذلك إلى أن يصير ملكة.

وبهذا يكون ابن خلدون قد وقف عند "أهم عامل في تعلم اللغة عند الفرد"(٣) وهو المحاكاة، لأن الناشئ أو المتعلم لا بد أن يستمع أولا للنماذج اللغوية ثم يقوم بمحاكاة المسموع وتقليده.

---

(١) ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ص١٣٠.

* (مجموعة جمل يفهمها المتكلم وتحتوي على عينات من اللغة يستقرأ الألسني القواعد منها)

(٢) ميشال زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ص٦٦.

(٣) صالح الشماع، ارتقاء اللغة عند الطفل، ص١٠١.

وينظر أحمد حسن عرقوب، تطور لغة الطفل، ص٣٦-٣٨.

ولم يقتصر ابن خلدون على السماع ليقينه بأن ذلك لا يكفي في تحصيل اللغة فانتقل إلى الخطوة الثانية في تحصيل اللغة وهي:

ثانيا: الحفظ: وفيه يقول: "ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث والسلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم... حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم، ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة"(١).

مما يعني أن المرء قد تتعدد عنده السلائق اللغوية، لكن هذا لا يحدث إلا حين يتقن لغة أخرى غير لغة بيئته وهو مستوى لا يتاح إلا بالمران والدربة الطويلة ومعايشة أصحاب اللغة في بلادهم ويستلزم وجود حاسة لغوية قوية لدى المرء.

فالحفظ هو الوسيلة في محاولة محاكاة كلام العرب لأن "حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم"(٢).

ويكشف أهمية الحفظ في حديثه عن اكتساب صبيان العجم للملكة العربية فيقول: "وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بَعد ذلك الجيل، بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٥ ـ ١٢٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٨-١٢٧٩.

والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم وربي بين أجيالهم"[١]، وكثرة المحفوظ كانت سببا في تحصيل أهل الأندلس لملكة العربية دون غيرهم وفي هذا يقول: "وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا"[٢]، وقد أسس ابن خلدون قاعدة مهمة حول هذا المحفوظ الذي يساعد على تحصيل الملكة، ولم يترك أمره عائما بلا حدود فحدده "بالقرآن والحديث والسلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم"[٣]، وتمثل هذه المجالات قمة جودة اللغة العربية لأنه "على قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ"[٤].

وكلما كان المحفوظ أجود ارتقت الملكة وجادت "بارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام لترتقي الملكة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها"[٥].

فالملكة مرآة للمحفوظ من حيث الجودة والرداءة "وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها"[٦]، وبهذا تكون ممارسة اللغة الحية ومحاكاة تراكيبها خير وسيلة لتعلم العربية و"واضح أن تعلم اللغة في يقين ابن خلدون، يتم من خلال توفير مادة كلامية حية ووضعها في متناول حفظ المتعلم بحيث

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠٣.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠٤.

يتفاعل مع اللغة وهي تعمل وتحمل النتاج الثقافي الأدبي الفصيح"[١]، وقد وعى ابن خلدون بعدا عميقا ينضاف إلى تعيين طبقة المحفوظ ومستوى جودته وتمثل هذا البعد في فهم المحفوظ وإدراكه حيث "لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه، فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه"[٢]، وبعد أن يتشبع المتعلم استماعا وحفظا لخير كلام العرب يأتي دور المرحلة الثالثة من نظرية اكتساب اللغة (الخلدونية) وهي:

ثالثا: التكرار وطول المران: وقد أكد في غير موضع أهمية التكرار واعتياد استعمال كلام العرب فقال: "إنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرر للكلام"[٣] وذكر في تعريفه للملكات أنها "لا تحصل إلا بتكرار الأفعال"[٤].

ووضح أن الملكة "إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والنطق لخواص تراكيبة"[٥]، وأدرك بهذه العبارة أن المكرر يجب أن يحاكي خواص كلام العرب من الفصاحة والرصانة، ولا يحاكي الكلام نفسه من أجل تكوين شخصية جديدة للمتعلم والابتعاد عن التقليد فإن تحصيل ملكة العربية يتم "بطول المران على ذلك"[٦]، وهنا يشير إلى المرحلة الزمنية التي يستغرقها تحصيل الملكة فهي لا تتم بين ليلة وضحاها بل لا بد لها من طول المران.

---

(١) ميشال زكريا، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ص٦٩.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٨١.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٩.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٧٩.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٥٠.

ويلتقي إبراهيم أنيس مع ابن خلدون في هذا الملحظ، ويظهر ذلك في حديثه عن السليقة التي يرى أنها "لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل إتقان اللغة، عندما لا يكاد يشعر المتكلم بخصائص كلامه... أي أن اكتساب اللغة يبدأ بالتقليد وكثرة المران"(١). ولنتذكر أن النشاطات الإنسانية هي نشاطات بيولوجية أي يمكن للفرد القيام بها بمجرد تمام تكوينه العضوي، كالمشي مثلا، أما اكتساب اللغة فهو ليس كذلك تماما، فمع أنه محتاج إلى القدرة الجسدية السليمة إلا أنه محتاج أيضا إلى المران فلو عزلنا طفلا عن المجتمع عزلا تاما حتى بلغ العاشرة مثلا، ثم درسنا مدى قدرته على الكلام تبين لنا أنه بالرغم من نمو عضلات لسانه لا يستطيع الكلام إلا بعد مران طويل.

وهكذا نجد أن جميع الخطوات التي قررها ابن خلدون من سماع أو حفظ أو مران ترمي كلها لخدمة هدف واحد وهو اكتساب ملكة شبيهة بملكة العربي الفصيح "والملكات اللسانية كلها إنما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة"(٢).

ولا تتم هذه الخطوات إلا إذا امتلك المتكلم المادة الأساسية لذلك كله وهي الاستعداد الفطري والقدرة على اكتساب اللغة فيقول: "من كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا لحصولها"(٣).

ويتفق ابن خلدون في أفكاره هذه مع أنظار السلوكين الذين يؤكدون "ضرورة

---

(١) إبراهيم أنيس، مستقبل اللغة العربية، ص١٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٩١٥.

التدريب والمحاكاة بوصفهما عاملين أساسيين في عملية تعلم اللغة أي أن الطفل حين يسمع تعبيرا جديدا يحاول محاكاته، ثم بالمران (إذا لقي التعزيز اللازم) يرسخ ذلك التعبير في ذهنه، وباستخدام القياس والتعميم يتمكن من الإتيان بتعبيرات جديدة لم يسمعها من قبل"[١].

وتوافي هذا المنحى مدرسة القواعد اللغوية الفطرية التي ترى "أن الطفل يولد ولديه قواعد لغوية عامة وهذه القواعد توجه الطفل إلى اكتشاف قواعد اللغة التي يتعلمها"[٢]، واعتمد ابن خلدون في تأسيس نظرته اللغوية على الاستعداد الفطري السليم الذي يؤدي إلى اكتساب اللغة ويسهم بوساطة المران والتكرار في تحصيل اللغة وتكشف الملاحظ المتقدمة تقاربا بين نظرية ابن خلدون في اكتساب اللغة ومجموعة من نظريات الاكتساب الألسنية:-

أولا: فهو يلتقي والنظرية الفطرية (لتشومسكي) في حديثه عن القدرة الإنسانية الممكنة له من تحصيل اللغة، وتركيزه على الجوانب النفسية الكامنة في الملكة.

ثانيا: ويلتقي والنظرية البيئية لـ (سكينر) ويظهر ذلك في ربطه بين البيئة وأثرها في تحصيل اللغة.

ثالثا: ويلتقي والنظرية المعرفية التي نادى بها (بياجيه) عند حديثه عن الارتقاء المتدرج في تحصيل اللغة وملكتها.

---

(١) محمود اسماعيل صيني، الكتابة العربية وأثرها في تكوين العادات اللغوية السليمة، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، ج٤، السنة ٤، ١٩٧٥-٧٦، ص٢١٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٢١٨.

الفصل الثالث

البلاغة والأسلوبية

أولا: البلاغة والأسلوبية

بدأت البلاغة بمجموعة من الملاحظ التي وردت في كتب علماء العربية والبلاغة كسيبويه (ت١٨٠هـ)، والمبرد (ت٢٨٥هـ)، وابن جني (ت٣٩٢هـ) إذ أوردوا إشارات ثاقبة حول القضايا البلاغية المتنوعة.

وقد تدرجت البلاغة على أيدي علمائها من بلاغيين ونقاد عبر مراحل الزمن، ومن هؤلاء: ابن المعتز في بديعة، وقدامة بن جعفر في نقد الشعر، وابن طباطبا في عيار الشعر، والآمدي في الموازنة والجرجاني في الوساطة، وابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة وابن رشيق في العمدة *.

مفهوم البلاغة بين القدماء والمعاصرين

تفيد البلاغة لغة: الانتهاء والوصول والبلوغ إلى الغاية، فيقال بلغ فلان مراده إذا وصل إليه، وبلغ الركب المدينة إذا انتهى إليها وهكذا و"سمي الكلام بليغا من ذلك، أي أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية"(١)، وسميت البلاغة بلاغة لأنها "تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"(٢).

---

* ينظر: مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة ص٥٠-٨٩.
وعبد العزيز عتيق، تاريخ البلاغة العربية ص ٢٣-٢٧١.
وعبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة ص ٨٣-١٣٢.
ومحمد بركات أبو علي، فصول في البلاغة، ص٣.

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ص١١٨.

(٢) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص٦.

وتنوعت المفاهيم الاصطلاحية التي قدمها علماؤنا للبلاغة بناء على اختلاف تصورهم لها وغرضهم منها، والناظر في البيان والتبيين يجد أن هذه المفاهيم تنسب إلى العرب وغيرهم، لتشكل بذلك رصيدا معرفيا كافيا لتكوين مفهوم جامع مانع للبلاغة.

ومن بين هذه التعاريف تعريف واسع يقدمه ابن المقفع ويجعله شاملا لوجوه عديدة فيقول: "منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سمعا...، فعامة ما يكون من هذه الأبواب فالوحي فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة"(١)، وورد تعريف روعيت فيه حال المتكلم، جاء فيه: "سئل العتابي: ما البلاغة؟ فقال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ"(٢).

وأورد الجاحظ العديد من التعاريف التي إن كانت "مقتضبة لا تكاد تكشف عن جوهرها الفني لا من جهة النظر ولا من جهة العمل"(٣) إلا أنها تجتمع تحت عبارة مفادها: حسن استخدام الكلام في الموقع أو المقال المناسب له والتفرقة بين حالات الكلام المختلفةويقدم الراغب الأصفهاني تعريفا للبلاغة ذا شقين "أحدهما: أن يكون بذاته بليغا وذلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف صوابا في موضوع لغته، وطبقا للمعنى المقصود وصدقا في نفسه، ومتى اختزم وصف من ذلك كان ناقصا في البلاغة والثاني أن يكون بليغا باعتبار القائل والمقول له، هو أن يقصد القائل أمرا فيورده على وجه حقيق أن يقبله

---

(١) الجاحظ، البيان والتبين، ج١، ص١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١١٣.

(٣) أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص١٨-١٩.

المقول له، وقوله تعالى: وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا (النساء: ٦٣) يصح حمله على المعنيين" [١]

وبهذا التعريف جعل البلاغة في أمور ثلاثة هي:-

أولا: صحة اللغة وسلامتها...

ثانيا: أن يكون المعنى المقصود للمتكلم منسجما مع الألفاظ التي استعملها المتكلم.

ثالثها: أن يكون صادقا في نفسه.

ويشترط العسكري في البلاغة المعنى المفهوم واللفظ المقبول فقال: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[٢].

وهي عند السكاكي: "بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"[٣] وتمثل هذه التعاريف جزءا يسيرا، من جملة التعاريف العربية للبلاغة والملاحظ عليها أنها تشمل جوانب متنوعة من البلاغة كحسن إفهام السامع، ومراعاة حاله وسلامة اللغة، وانسجام الألفاظ مع المعاني، ويبدو أن هذه التعاريف عرضت لجزئيات القاعدة الكلية التي مفادها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فما هي مراعاة حال السامع إلا المطابقة وما هو انسجام

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات ص٦٠.

(٢) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص١٠.

(٣) السكاكي، المفتاح، ص٥٢٦.

الألفاظ مع معانيها إلا المطابقة وهكذا رأى ابن خلدون أن تكون مطابقة الكلام لمقتضى الحال هي تعريف البلاغة.

البلاغة وسياق الحال عند ابن خلدون

عقد ابن خلدون فصلا في مقدمته بعنوان (علم البيان) تضمن مجموعة من الآراء البلاغية والتعاريف والعبارات الشارحة والأمثلة التوضيحية لطائفة من الفنون البلاغية.

ويكشف في هذا الفصل أن البلاغة - وغيرها من علوم العربية - نشأت من أجل خدمة القرآن، ويظهر ابن خلدون أن السبب في إعجاز القرآن كامن في بيانه وبلاغته فيقول: "واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه".(١)

وبهذا يبين ابن خلدون أن إعجاز القرآن حادث من:-

أولا: دلالات ألفاظ القرآن، الموافقة لسياق الحال.

ثانيا: اختيار الألفاظ.

ثالثا: جودة الرصف وحسن النظم لهذه الألفاظ والدلالات.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٦.

وقد استند إلى هذه العناصر في بيانه عن إعجاز القرآن انطلاقا من وعيه بأن القرآن جنس فريد في بابه وله مميزاته في التعامل مع التراكيب التي اعتمدت على دلالة الألفاظ وما تحويه هذه الألفاظ من إيحاءات خاصة، وعلى دقة اختيار الألفاظ القرآنية بشكل يضعها في مواضعها اللائقة بها، واعتمدت كذلك على الإمكانات النحوية الواسعة التي شكلت مناط الفضيلة ومجال الإعجاز، وفي هذه النقطة (النظم) يظهر تأثر ابن خلدون واضحا بعبد القاهر الجرجاني في نظريته.

ويبين ابن خلدون أن تفسير الزمخشري ينفرد من بين التفاسير بالاعتماد على الفهم البلاغي والذوق البياني فقال "وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه (أي الذوق) حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير (الكشاف)... فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير" [١]، ومن قراءة عبارات ابن خلدون حول البلاغة يظهر أنه كان يطلق على البلاغة اسم "علم البيان" الذي كان يهدف إلى البحث عن الدلالات "الزائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب" [٢]، ويلتقي ابن خلدون مع التأصيل البلاغي في تقسيمه البيان إلى ثلاثة أضرب هي:-

أولا: البلاغة، وهو العلم الذي يُبحث فيه عن "الهيآت والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال" [٣].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٤.

وينظر، يحيى العلوي، الطراز، ج١، ص٧.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٤.

ثانيا: البيان، وهو العلم الذي يبحث فيه عن "الدلالة على اللازم اللفظي وملزومة وهي الاستعارة والكناية".(١)

ثالثا: البديع، وهو "النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما"(٢).

ويرجع إطلاقه على هذه الأقسام علم البيان إلى كون "الأقدمين أول ما تكلموا فيه"(٣).

وعرّف ابن خلدون البلاغة فقال: "إذا حصلت المكلة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة"(٤).

وتكشف لنا هذه العبارة عن نظرة ابن خلدون للبلاغة التي تنطوي على الأفكار التالية:

أولا: البلاغة متعلقة بالألفاظ المفردة وحسن تركيبها ونظمها.

ثانيا: البلاغة مراعية في تأليفها للمطابقة مع مقتضى الحال.

ثالثا: غاية البلاغة القصوى هي إيصال المقصود للسامع.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٩.

وينبني التركيب اللغوي على مقتضى الحال في بيانه عن المعنى المراد منه ويستند معنى الكلمة إلى وجودها في مقام معين، وإذا ما حدث أي تغيير لموقع تلك الكلمة حدث تغيير في دلالة الجملة.

ووضح أن البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال عندما قال: "وقد مر تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك، فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده" (١)

وبين أن البلاغة هي إيصال المراد وتمام المقصود فقال: "كحال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند أهل البيان، لأنهم يقولون: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال هو فن البلاغة"(٢).

وحصر البلاغة بمطابقتها لمقتضى الحال فقال: "إنما البلاغة مطابقة الكلام المقصود لمقتضى الحال الموجود فيه... فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة"(٣).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣١٦.

وبهذا يظهر أن في تعريف ابن خلدون البلاغة على أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال تلاقٍ مع الأنظار البلاغية السابقة عليه لكنه انطلاقا من أن هدف البلاغة: هو تحصيل المقاصد رأى أن هذا لا يتم إلا عبر العرف الاجتماعي للدلالات، فما يصطلح عليه أهل اللغة يصبح هو الصواب وهو الملكة، وبما أن البلاغة اشترطت الصحة اللغوية فإنه متى تمت مطابقة هذه الدلالات تم الوصول إلى البلاغة.

ويعرّف ابن خلدون البلاغة بالبيان عن المقاصد حيث أن مقاصد المتكلم عند ابن خلدون واحد من الآتي: "إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض والدال على هذه المفردات من الأسماء والأفعال والحروف، وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات... ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل... وإذا لم يشتمل على شيء فيها فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به، بعد كمال الإعراب والإبانة"(١).

ويتضح من هذا النص أن الإبانة عن المقاصد تتم بواسطة دلالة المفردات وطبيعة العلاقات الإسنادية التركيبية للجملة، والحركات الإعرابية، وهذا يُبدي أنه عندما يتم تحصيل المقاصد على الوجه المخصوص يتحقق الكلام البليغ المستند إلى انتقاء الألفاظ المراعية للموقع والوظيفة النحوية.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٣.

واخرج ابن خلدون الكلام المقصر عن مطابقة الحال والاكتمال الدلالي من نسق الكلام العربي فقال: "فما قصر من هذه التراكيب عن المطابقة وكمال الإفادة فهو مقصر عن البلاغة ويلحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم، وأجدر به ألا يكون عربيا لأن العربي هو الذي يطابق بإفادته مقتضى الحال".(١)

ولم يترك أمر مطابقة الكلام لمقتضى الحال حائرا دون مثال، بل قدم أمثلة على أصناف منها كالتقديم والتأخير والوصل والإبهام والمعرفة والتأكيد والإيجاز والإطناب ويلتقي مع سابقيه في توضيح دلالات التقديم والتأخير فيقول: "ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم، فمن قال جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجئ قبل الشخص المسند إليه، ومن قال زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند، وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة" (٢).

وذكر التأكيد لتوضيح مقتضى الحال، وخص فيه حال المخاطب فمتى كان المخاطب خالي الذهن قدم إليه الخبر خاليا من المؤكدات، ومتى كان مترددا قدم له الخبر بمؤكد واحد ومتى كان منكرا تعددت المؤكدات "وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم زيد قائم، وإنّ زيدا قائم، وإنّ زيدا لقائم، فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن، والثاني المؤكد بأن يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر، فهي مختلفة"(٣).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٦٣.

وردد أقوال سابقيه عن التعريف والتنكير وتمايزهما فقال: "وكذا تقـــول جـــاءني الرجل، ثم تقول مكانه بعينه جاءني رجل إذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وأنه رجـــل لا يعادله أحد من الرجال" (١).

وقد سبق النحاة العرب ابن خلدون في هذه الأفكار، ومنهم الجرجاني الذي فـــرق في المعنى بين "ضربت زيدا وزيدا ضربته"(٢).

وتحدث البلاغيون عن أهمية المؤكدات ودورها فـــي إظـــهار المعـــاني، فقـــص الجرجاني ما حدث مع الكندي الفيلسوف وأبي العباس، حيث ذهب الكندي إلى وجود حشو في كلام العرب في قولهم "عبدالله قائم" و "إن عبدالله قائم" و"إن عبدالله لقائم"(٣)، فقد رآهـــا ألفاظا متكررة لمعنى واحد فرد عليه أبو العباس فقال: "بل المعـــاني مختلفـــة لاختـــلاف الألفاظ فقولهم "عبدالله قائم" إخبار عن قيامه وقولهم "إن عبدالله قائم" جواب عـــن ســـؤال سائل، وقولهم "إن عبدالله لقائم" جواب عن إنكار منكر قيامه فقد تكررت الألفـــاظ لتكـــرر المعاني"(٤)، فمطابقة الكلام لمقتضى الحال أصل من الأصول البلاغية، ومعيار أساس من معايير النقد والبلاغة، فبمقدار تحققها في الكلام يكون حظه من الجودة والبلاغة.

وجمال الفنون البلاغية عند ابن خلدون قار في تلك اللذة المحفزة للذهن من أجـــل الغوص واكتناه المراد من العبارات، وفي ذلك يقول: "ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٦٣.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٠٩.

ثالثا: مراعاة أقدار المعاني وأقدار المستمعين[١].

وانطلاقا من فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال حدد ابن سنان الخفاجي مجموعة من صفات المدح الخاصة بكل شخص حسب مكانته "فيمدح الخليفة بتأييد الدين وتقوية أمره.... ويمدح الأمير وقائد الجيش بالشجاعة..."[٢] وهكذا.

وعرف السكاكي البلاغة صراحة بأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[٣].

ويوافي القزويني الفهم ذاته في التفريق بين مقامات المواضيع والمخاطبين وأحوالهم فيقول: "ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه وكذا خطاب الذكي مع خطاب الغبي"[٤].

وتتضمن عبارات القزويني إدراكا لأهمية الوضع النفسي للمتكلم والمخاطب "أو ما أسماه المحدثون باستراتيجية المتكلم والسامع"[٥].

ومثلما فصل القدماء بقضية مطابقة الكلام لمقتضى الحال أدلى المحدثون بدلوهم في هذا الموضوع توضيحا وزيادة، فهذا أحمد الشايب يعرف موضوع البلاغة بالرجوع

---

(١) الجاحظ، الحيوان، ج١، ص١٣٩.

(٢) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص٣٠١.

(٣) السكاكي، المفتاح، ص٢٩.

(٤) القزويني، تلخيص المفتاح، ص١٩-٢٠.

ينظر عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية، ج١، ص١٢٩.

(٥) إبراهيم خليل، السياق وأثره في الدرس اللغوي، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، ص٧٢.

إلى "أهم خواصها وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[١].

والحال عنده هو ما يستدعي المتكلم إلى أن يميز كلامه بمقتضى الحال "فإنكار المخاطب للمعنى حال يقتضي أن تؤكد له الجملة فتقول إن محمدا ناجح وذلك التأكيد هو مقتضى الحال"[٢]، أي أن المطابقة هي "وضع الكلام موضعه... مع حسن العبارة"[٣].

ويقدم علي البدري كتابا بعنوان: "بحوث المطابقة لمقتضى الحال"، يفرق فيه بين الحال ومقتضى الحال فجعل "المقام أو الحال: هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يورد كلامه على نحو خاص... ومقتضى الحال: أو الاعتبار المناسب، هو الصورة التي يورد عليها الكلام وهو الخصوصية التي يقتضيها المقام"[٤].

وتنبه تمام حسان إلى أهمية الربط بين مقتضيات المقام والدلالة بالإضافة إلى ظروف أداء المقال، وفيه يقول: "أما المعنى المقامي، فهو المعنى الذي يتكون من ظروف أداء المقال تلك التي تشتمل على المحددات الدلالية الحالية، فيما يعرف باسم المقام"[٥].

وقد سبق ابن خلدون إلى هذا عندما ذكر بساط الحال فقال "الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها ويبقى ما تقتضيه الأحوال ويسمى بساط الحال محتاجا إلى ما يدل عليه"[٦].

---

(١) أحمد الشايب، الأسلوب، ص٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١٢.

(٣) كرم البستاني، البيان، ص٥.

(٤) علي البدري، بحوث المطابقة لمقتضى الحال، القسم الأول، ص٨٧.

(٥) تمام حسان، اللغة معناها ومبناها، ص٣٣٩.

(٦) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٧٠.

وهذا أمر سائغ لأن غرض البلاغة إيصال ما في النفس من معان ودلالات لـــهذا "يعتمد المعنى الدلالي على هاتين الدعامتين (المقام والمقال) اعتمادا كبيرا لما بينهما مـــن علاقة تضامنية".[١]

وقد ميز بعض الباحثين بين الحال والمقام فجعل الحال خاصـــا بـــالزمن والمقـــام خاصا بالمكان "وفكرتا الحال والمقال مرتبطتان بالبعد الزماني والمكاني للكلام، وذلـك أن الأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقديم صياغته على وجه معين إما أن يتصـــل بزمـــن هـــذه الصياغة فيسمى الحال، وإما أن يتصل بمحلها فيسمى المقام لأن كل كلام لا بد له من بعد زماني وبعد مكاني يقع فيه"[٢].

وقد اهتم اللغويون والباحثون بـــ "مقتضى الحال" إلى أن وصلنا إلى مـــا يســـمى حديثا بـــ سياق الحال، الذي اهتم اللغويون به لتحديد معاني الكلمات "لأن الكلمـــة يتحـــدد معناها من خلاله ولا تدل بنفسها على شيء"[٣]، وتعود مدرسة سياق الحال إلى مدرســـة لندن اللغوية ولا سيما إلى الأستاذ (فيرث)[٤]، ومضمون هذه النظرية هو ذاته مضمـــون عبارة (لكل مقام مقال) لأن سياق الحال عندهم هو مجموعة من العناصر المكونة للموقف الكلامي أو الحالة الكلامية ومن هذه العناصر: "١- شخصية المتكلم أو السامع وتكوينـهما الثقافي... ٢- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة والسـلوك اللغـوي لمـــن

---

(١) عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلالية والتراث البلاغي، ص١٨.

(٢) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص٢٢٩.

(٣) كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص٢٨٣.

(٤) عبده الراجحي، فصول في علم اللغة، ص٧٢.

يشارك في الموقف الكلامي...، ٣- أثر النص الكلامي في المشتركين، كالإقناع أو الألم..."[١].

ويتوسع عدنان بن ذريل في مفهوم السياق ولا يقصره على الجملة وما يجاورها بل يتعداه إلى كل ما هو شخصي وثقافي بين المتكلم والسامع فيقول في السياق هو "جوار الكلمات في التلاصق الركني الملفوظ للجمل أي ما يسبقها ويلحقها من مفردات وعادة يعد العامل النحوي في تركيب الكلام مظهرا سياقيا، وينطوي السياق على مجموعة العوامل والظروف الاجتماعية والثقافة التي تحيط بالمتكلم والسامع"[٢].

وهكذا تتعالى فكرة تعريف البلاغة على أنها موافقة الكلام لسياق الحال، إذ يمثل هذا المستوى تفطنا للسياق الاجتماعي الذي يراعيه النص في انطلاقه من واقع خاص

ينداح من خلاله، لأن في هذه العبارة تفسيرا لكل جوانب الدرس البلاغي وكشفا عن خفاياه، وهي وإن تطورت وحملت مسميات حديثة كنظرية سياق الحال أو السياقية فهي تلتقي في مضمونها مع ما قدمه علماؤنا العرب القدماء وما عرفه ابن خلدون للبلاغة. وفي هذا يقول حمادي صمود: " فمن المصطلحات المتواترة (المقام) و(الموضوع) و (الحال) كذلك الأقدار أو المقدار والمشاكلة والمطابقة وجميعها فروع عن أصل ثابت في تفكيره وإن لم يتبلور على الصعيد الاصطلاحي هو فكرة (المناسبة) و(الملائمة)"[٣].

---

(١) نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، ص٨٥، ٨٦.

(٢) عدنان بن ذريل، اللغة والدلالة آراء ونظريات، ص١٦٠.

(٣) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٠٩.

الأسلوب

تناولت الدراسات المعاصرة مصطلح الأسلوب من جوانب مختلفة بغية الوصـــول إلى فهم واضح يمكّن من استيعاب أصناف الأداء في مستوياته المتنوعة، وقـــد أدركـــت الدراسات القديمة هذا الجانب وبحثته في سياق البلاغة العربية.

وإن ما يسوغ درس الأسلوب في سياق البلاغة هو أن:-

"البلاغة هي أسلوبية القدماء، وهي علم الأسلوب"[١] وقد "ارتبط مصطلح الأسلـوب فترة طويلة بمصطلح البلاغة"[٢] وبهذا نجد أن مفهوم الأسلوب قديم ويظهر "أكثر ارتباطـا بالبلاغة منه بفن الشعر"[٣] وبعبارة أخرى فالأسلوبية "بلاغة حديثة"[٤].

أما علة دراسة الأسلوب ضمن الأنظار اللسانية فذلك عائد لكون "اللسانية احتضنت الأسلوبية"[٥].

وقد انتظمت الأسلوبية واللسانية في نسق رغبة في تحقيق منهجية علمية بعيدة عن الأحكام الذاتية: "لأن اللسانية تشكل قاعدة ثابتة لضمانة الموضوعية ودقـــة البحـــث فـــي دراسة أي أسلوب كان في أي نص أدبي كان"[٦].

---

(١) بير جيرو، الأسلوبية، ص٢٧،

وينظر عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، ص٩٧.

(٢) محمد عبد المنعم الخفاجي، ومحمد فرهود، وعبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، ص١٢.

(٣) غراهام هوف، الأسلوب والأسلوبية، ص١٩.

(٤) بير جيرو، الأسلوبية، ص٩.

(٥) عزة آغا ملك، الأسلوبية من خلال اللسانية، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع٣٨، ١٩٨٦، ص٨٤.

(٦) المرجع نفسه، ع٣٨، ١٩٨٦، ص٨٤.

وبناء على هذا رأى اللساني ر. فاولر سنة ١٩٦٦ "بأن الأسلوبية هي فرع من اللسانية، إلا أن هذا الفرع يُعنى بمعالجة المتغيرات الموجودة داخل النص بكامل أقسامه"(١).

ويؤكد أولمان استقرار الأسلوبية علما لسانيا فيقول: "إن الأسلوبية اليوم هي من أكثر أفنان اللسانيات صرامة على ما يعتري غائيات هذا العلم الوليد ومناهجه ومصطلحاته من تردد دلنا أن نتنبأ بما سيكون للبحوث الأسلوبية من فضل على النقد الأدبي واللساني معا"(٢).

ويبدو أن ستيفن أولمان قلب النظر في كلمة (علم)، لكنه لم يلاحظها في الأسلوبية فرأى أنها "ليست فرعا من اللسانية إنما هي علم موازٍ يبحث القضايا نفسها بوجهة نظر مختلفة"(٣).

مفهوم الأسلوب عند القدماء

وقد عنى الأسلوب في لغتنا: "الطريق"(٤) "ويقال للسطر من النخيل أسلوب، كل طريق ممتد فهو أسلوب والأسلوب الطريق والوجه والمذهب، والأسلوب الطريق تأخذ فيه

---

(١)عزة آغا ملك، الأسلوبية من خلال اللسانية، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع٣٨، ١٩٨٦، ص٨٤.

(٢) عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، ص٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٨٤.

(٤) ينظر: – لسان العرب، ابن منظور، ج٣، ص٣١٤.

– ابن دريد، جمهرة اللغة، ج١، ص٢٨٩.

– الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٨٦.

والأسلوب الفن، يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه"[١] ويقال للمتكبر "أنفه في أسلوب إذا لم يلتفت يمنة ولا يسرة"[٢].

ولم تخرج المعاجم الحديثة عن هذا الفهم وهذا السياق الذي تضمن اتجاهين:

- الأول حسي مادي متمثل في الطريق أو سطر النخيل.

- والثاني الفني الأدبي والمتمثل في الفن من القول أو الوجه والمذهب.

وقد امتد هذا الفهم المعجمي إلى كتب البلاغة في حديثها عن الطرق التي يتمايز بها الكتاب تبعا لتمايز طرقهم (أساليبهم) في التعبير، وكان ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) من أولهم حيث قصد بالأسلوب: الطرق المختلفة في التعبير عن المراد، وبهذا ربطٌ بين تعدد الأساليب وطرق العرب في أداء المعاني فيقول:-

"وإنما يَعرفُ فضلَ القرآن من كَثُر نظرهُ واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات... فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاما في نكاح أو حمالة أو تحضيض أو صلح أو ما أشبه ذلك، لم يأت به من واد واحد بل يتفنن فيختصر تارة إرادة للتخفيف ويطيل تارة إرادة الإفهام"[٣].

وتنبه الخطابي (ت ٣٨٨هـ) إلى دور اختيار الأساليب وتنوعها في المفاضلة بين الشعراء.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٣١٤.

(٢) الزمخشري، أساس البلاغة، ج١، ص٤٥٢.

(٣) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص١٠، ١١.

فقال: "أن يجري أحد الشاعرين في أسلوب من أساليب الكلام ووادٍ من أوديتـــه فيكــون أحدهما أبلغ في وصف ما كان بباله من الآخر في نعت ما هو بإزائــه، وذلــك مثــل أن يتأمل شعر أبي دؤاد الإيادي والنابغة الجعدي في صفة الخيل وشعر الأعشى والأخطل في نعت الخمر... فيقال فلان أشعر في بابه ومذهبه من فلان في طريقته التــي يذهبــها فــي شعره"(١).

وفكرة الباقلاني (ت٤٠٣هـ) في هذا السياق مؤداها أن لكل فــن أدبــي أســلوب خاص به، مميز له عن غيره فلا يجوز اعتماد أسلوب الرسالة في القصة وهكذا، ويخـص في حديثه أسلوب القرآن الكريم الذي تفرد دون غيره من الفنون الكلامية بأساليبه البلاغية المتنوعة فيقول: "إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعــهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختــص بــه ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد" (٢).

والأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ): الضرب من النظم الذي يأتي على نسق مخصوص فيشكل منهجية يتسم بها الشخص، ثم يأتي آخر ليؤلف على نهجــه ويحذو حذوه، وبهذا إشارة إلى ما يختص به الكاتب عن ملامح غيره فيقول: "واعلــم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنى لــه وغرض أسلوبا، والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه، فيعمد شاعر آخر إلى ذلــك

---

(١) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص٨٦.

(٢) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص٤١.

الأسلوب فيجئ به في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال قد احتذى على مثاله"[١].

ويخص حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) الأسلوب بالمعاني، والنظم بالألفاظ فيقول:- "فالأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية والنظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية"[٢].

وبهذا ندرك أن العلماء العرب قد تنبهوا إلى جوانب مختلفة من الدرس الأسلوبي فقد خصوا كل فن أدبي بأسلوب خاص بالكتابة لا يجوز استعارته لغيره من الفنون وأدركوا علاقة الأسلوب بالفرد حيث تتمايز الأساليب بتمايز أفرادها.

الأسلوب عند ابن خلدون

أدرك ابن خلدون مفهوم الأسلوب إدراكا خاصا جعله يكشف ملامحه البنائية فيقول علي بوملحم: "إذا التمسنا من الآثار الكتابية أن تعيننا على استجلاء الأمر، لا نعثر على أبحاث تتناول هذه اللفظة بالتوضيح ولعل ابن خلدون هو المفكر الوحيد الذي تكلم عن الأسلوب بشيء من البسط، بحيث ألمّ ببعض نواحيه وسلّط قبسا من الضوء على مجاهله"[٣].

ويعد ما كتبه ابن خلدون حول الأسلوب "أوسع ما كتب عن الأسلوب عند

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٢٩٨.

(٢) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٣٦٤.

(٣) علي بو ملحم، في الأسلوب الأدبي، ص١٠.

المتقدمين"[١]، وقد تحدث عن الأسلوب في فصل "صناعة الشعر ووجه تعلمه" وخص حديثه في هذا الفصل عن أسلوب الصناعة الشعرية دون غيرها من الصناعات الأدبية فرأى أن الأسلوب الشعري يعتمد ما يلي:-

أولا: وجود منوال أو نمط أو قالب ترتب داخله التراكيب.

ثانيا: لا يهم في هذه المرحلة من تكوين الأسلوب اعتماد أصل المعنى لأنه مهمة الإعراب ولا يهم كمال المعنى لأنه وظيفة البلاغة، ولا يهم الوزن لأنه وظيفة العروض، وهذا ما يكشفه قول ابن خلدون: "لنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية"[٢].

فإذا كان ما ذكر سابقا غير مؤثر في الصناعة الشعرية، تأتي النقطة الثالثة المركزية وهي:-

ثالثا: المرحلة المركزية في الصناعة الشعرية وهي مرحلة الصورة الذهنية المتخيّلة التي يتم انتزاعها من أعيان التراكيب.

---

(١) علي محمد حسن العماري، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي ص٤٥.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣٩١.

رابعا: ترص الصورة الذهنية داخل قوالب الإعراب والبيان المعتمدة عربيا، ليخرج بعدها الأسلوب المميز للشعر دون غيره من الفنون ولشاعر دون غيره من الشعراء، وفي هذا يقول: "وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة"[١]، ومن هذا النص نفهم رأي ابن خلدون في صناعة الشعر وربطه بالأسلوبية في محاولة لوصف العمل الكلي المتكامل للأدب.

وقد قصد ابن خلدون من (أصل المعنى) الدلالة السليمة المتعارفة للغة وما تستلزمه من معان سليمة للكلمات وتلفظ صحيح للكلام من حيث تركيبه وإعرابه، وقصد من (كمال المعنى) المميزات البلاغية للكلام، ومطابقتها لمقتضى الحال.

وأول ما يلاحظ على هذا النص تفريقه بين العلم والفن وموقعهما من الأسلوب فهذا النص يضع أمامنا عدة قوانين قيمة في الدراسات الأدبية منها أن هناك فارقا بين الوجهين

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣٩١.

العلمي والفني في تشكيل الأسلوب الأدبي فقد يعرف أحدهم قوانين النحو والبلاغة وكل علوم العربية لكنه لا يملك الطبع الأصيل من أجل صياغة أسلوب جميل.

ويأخذ القالب حيزا مهما في حديث ابن خلدون عن الأسلوب في غير موقع من مقدمته، فالأسلوب بنظر ابن خلدون قالب ذهني تنصب فيه التراكيب اللغوية بشكل يُعنى بمقصود الكلام ويتناسب وفنَّ القول، وبهذا يختلف الأسلوب عن تراكيب اللغة وبلاغتها وعروضها، فالتراكيب اللغوية هي أساس الأسلوب وعلوم العربية تدرس خصائص تلك التراكيب، وبهذا "استطاع ابن خلدون بدقة ملاحظته ونفاذ بصيرته أن يتجنب الوهم الذي يقع فيه المرء غالبا، وهو الخلط بين اللغة من كلمات وتعابير وبين طريقة صياغة هذه التعابير التي هي جوهر الأسلوب"(١)، وبهذا الفهم يربط ابن خلدون بين الأسلوب والقدرة اللغوية إذ يشكل الأسلوب عنده "أمرا افتراضيا لا يأخذ شكله المتجسد إلا بتمام التركيب اللغوي وابن خلدون بهذا يربط بين الأسلوب والقدرة اللغوية، ويعني بها تلك القدرة التي تتكون لدى كل فرد من أفراد مجتمع معين والتي تمكنه من التعبير عما يريد بجمل جديدة"(٢)، وحتى يتكون هذا الأسلوب لا بد من كثرة المحفوظ لحصول الصورة الذهنية للقالب ومراعاة قوانين علوم العربية "ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي يحذو حذوه في التأليف كما يحذو البناء على القالب والنساج على المنوال... إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها، فإذا

---

(١) علي بو ملحم، في الأسلوب الأدبي، ص١١.

(٢) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص٣٢.

وينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص٦٦.

تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها أساليبا"[١].

واحتلت الصورة الذهنية مكانة من فهمه للأسلوب الذي هو (المنوال الذي تنسج فيه التراكيب) فليس مرجعه الإعراب أو العروض إنما مرده إلى صورة ذهنية للتراكيب مردها النظر في التراكيب العربية الفصيحة، وهذا يعني أن الأسلوب عند ابن خلدون أخذ شكل الظاهرة الاجتماعية الموحدة، ويمكن من خلال النماذج الكلامية الصادرة عن أفراد هذه الظاهرة التوصل إلى العوامل المشتركة التي تساعد على تصور النموذج المثالي الموجه لكلام الأفراد، فالأسلوب عنده صورة ذهنية للتراكيب يخرجها الخيال كالقالب أو المنوال وبهذا يؤكد ابن خلدون الصلة الوثيقة بين التفكير والتعبير إذ يعكس الأسلوب تفكير صاحبه وخياله أي شخصيته، وحديث ابن خلدون عن الشخصية يعني "أن كل كاتب في الوجود يضفي شيئا من شخصيته ولون روحه ومشاعره على ما يكتب"[٢]، ويرجع هذا الفهم للأسلوب إلى ما يستمده الأديب من حصيلة لغوية تشتمل: النحو والصرف والبلاغة مما يؤكد تكامل النظام اللغوي، والصورة عنده ليست مجرد معان أو جمل إنما هي طريقة التعبير التي يسلكها المتكلم.

وبهذا يكون أساس الأسلوب وقوامه انتقاء التراكيب الصحيحة ورصها في القالب الذهني كما يفعل البناء، وتتنوع الأساليب عنده بتنوع الموضوعات واختلافها، وقد ربط بين الأنواع الأدبية والأساليب، ملاحظا الفروق اللفظية والمعنوية بين المنظوم والمنثور.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٩٤.

(٢) محمد كامل جمعة، الأسلوب، ص٨.

ويتضح هذا بصورة جلية في قوله، "لهذا قلنا إن المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم، وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور فإن العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين، وجاءوا به مفصلا في النوعين"(١) وصور ابن خلدون مؤلف الكلام بالبناء أو النساج الذي يجعل مادته الأولية الألفاظ اللغوية والتراكيب المعجمية، ويعمل المؤلف على اختيار هذه المواد، ويمثل هذا الاختيار مقياس تفاضل بين المؤلفين لدى توظيفه في التعبير عن مرادهم.

ويكشف ابن خلدون عن سمات الأسلوب بقوله: "وتنتظم التراكيب فيه (أي فنون الكلام) بالجمل وغير الجمل، إنشائية وخبرية... على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الأخرى يعرفك به ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها، فإن مؤلف الكلام هو كالبناء أو النساج، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه، فإن خرج عن القالب في بنائه أو على المنوال في نسجه كان فاسدا، ولا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك... إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب، لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب"(٢).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٢٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٩٣.

وبهذا يتضح أن نظرة ابن خلدون بلغت "نضجا فنيا عاليا"[١] ذلك أنه ينظر للأسلوب على أنه اختيار للتراكيب، المنسجمة مع القواعد النحوية والبيانية، التي لا بد لها من قالب أو منوال خاص.

وهذه النقاط التي ركز عليها ابن خلدون في حديثه عن الأسلوب وعده طريقة الصياغة اللغوية أولا، والإشارة إلى الصلة بين الكاتب والأسلوب ثانيا واختلاف الأساليب بناء على الموضوعات ثالثا، وعد الفن انتقاء واختيارا رابعا، كل ذلك جعل علي بو ملحم يذهب إلى أن "ابن خلدون سبق الغربيين إلى الفهم الحديث للأسلوب"[٢] فهذه المبادئ هي التي يبني عليها الغربيون أبحاثهم الأسلوبية.

ومما يؤكد انسجام آراء ابن خلدون الأسلوبية مع الدراسات الحديثة عده الأسلوب اختيارا فالأسلوب عند الزيات "هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام، وهذه الطريقة فضلا عن اختلافها في الكتّاب والشعراء تختلف في الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذي يعالجه... ولكن الأساليب مهما اختلفت باختلاف الأفراد وتنوعت بتنوع الأغراض فإنها تتسم جميعا بسمات واحدة من عبقرية الأمة"[٣].

ويحتوي هذا النص العناصر الأساسية التي عالجها في الأسلوب من حيث عده اختيارا وتأليفا للتراكيب واختلاف الأساليب وفقا للمقامات، وعده ميزة إبداعية والأسلوب

---

(١) عبدالله عنبر، نظرية النظم، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٠، ص١٧١.

(٢) علي بو ملحم، في الأسلوب الأدبي، ص١٢.

(٣) أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص٥٦.

عند سعد مصلوح "أختيار Choice" أو انتقاء Selection يقوم به المنشيء لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين"[١].

وجاء الاختيار عنده على نوعين اختيار محكوم بالموقف أو المقام واختيار أو انتقاء نحوي، وهذا هو ذاته ما قصده ابن خلدون عند حديثه عن "انتقاء التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان"[٢]، وجاء رأي ابن خلدون في الأسلوب موافقا لأنظار المحدثين الذين عدوا الأسلوب "طريقة التفكير والتصوير والتعبير"[٣] وقوامه عنصران هما الكلمات والجمل وغيّر المحدثون لفظة الاختيار ليجعلوها "النظام والحركة اللذين يضع المرء فكره في إطارها، فإذا ما قيدهما وضيقهما فسوف يكون الأسلوب مغلقا، متوترا مقتضبا، وإذا ما تركهما تتوالى حركتهما في هدوء ... يكون الأسلوب منبعثا وسهلا ومسترسلا"[٤].

ويرى عبد السلام المسدي ذلك الاختيار الواعي الذي يسلطه المؤلف على ما توفره اللغة من طاقات يراه "الحد الفاصل بين التقديرات الفلسفية للأسلوب وتقديراته الموضوعية التجريبية"[٥].

ومرتبة الأسلوب عنده تالية على الوظيفة الأساسية في التواصل الكلامي وفي ذلك يقول: "ففرضية الاختيار في تحديد ماهية الأسلوب تفضي إلى اعتبار الأسلوب جسرا

---

(١) سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، ص٢٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج ٤، ص١٢٩١.

(٣) أحمد الشايب، الأسلوب، ص٣٩.

(٤) أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي، ص١٨٣-١٨٤.

(٥) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص٧١.

"أسلوبية التعبير ويمثله (شارل بالي)، والأسلوبية الفردية أو أسلوبية الكاتب ويمثله (ليو سبتزر)"[١].

ومما سبق نتبين أن الأسلوب سواء أكان طريقة للعيش أم طريقة لكاتب من الكتاب أو لجنس من الأجناس فإنه يتضمن فكرة السمة الخاصة لفعل من الأفعال.

---

(١) عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، ص١٤٦، ١٤٩.

ثانيا: قضايا نقدية

اللفظ والمعنى عند النقاد القدماء

تمثل هذه القضية مظهرا من مظاهر الاختيار الأسلوبي في البلاغة العربية وتشكل ملحظا من ملاحظ تفكير العرب وذوقهم وأنماط نقدهم على امتداد قرون طويلة وقد حظيت هذه القضية بعناية مميزة في الدرس البلاغي؛ لأن غاية البلاغة في أساسها:- إيصال المعنى وفق كيفيات خاصة بناء على علاقة الدال بالمدلول.

وأعطى الجاحظ جزءا كبيرا من عنايته لهذه القضية، حيث قدم مجموعة من العبارات التي حار الباحثون في تفسيرها، لتضاد المواقف فيها فقد جاء بعضها مرجحا الألفاظ على المعاني وبعضها الآخر جاء معاكسا لذلك، وأشهر عبارة كررتها كتب الأدب والنقد على لسان الجاحظ (ت٢٥٠هـ)، هي تلك العبارة الغامضة التي لم تحدد الفهم الصحيح للمعنى عند الجاحظ وفيها يقول:

"وذهب الشيخ أبو عمرو الشيباني إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"(١).

وقد فهم بعض الدارسين من هذه العبارة أن الجاحظ يعترف بأفضلية اللفظ على المعنى، ومنهم محمد العشماوي الذي حكم على الجاحظ بسيطرة الفكر المنطقي في معالجة

---

(١) الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص١٣١.

هذه القضية، فرأى أن فهمه لها تميز: "باستقلال المعنى عن اللفظ فالمعنى يوجد أولا أو مستقلا ثم يتبعه اللفظ أو يقتفيه... والمبالغة في العناية بالشكل"(١).

وكذلك يرى نعيم الحمصي أن الجاحظ قد أعلن بهذا النص ترجيحه "ناحية اللفظ على ناحية المعنى صراحة، وهو إنما يقصد بالمعاني المعاني العامة كوصف الرجل الكريم بالبحر وما أشبه ذلك، ولا يريد بها المعاني التفصيلية الجزئية ولا هذه المعاني الثانية التي يسميها عبد القاهر الجرجاني معنى المعنى"(٢).

ولكن إذا حاولنا تفسير العبارة بطريقة متوازنة يظهر لنا أن ذكر اللفظ والمعنى ليس دليلا على استقلال اللفظ عن المعنى استقلالا تاما، إنما يأتي ذكرهما من الناحية الشكلية لتحليل العناصر الفنية داخل الكلام الشعري.

وأرى أن غموض نص الجاحظ واختلاف التفاسير حوله عائد إلى نفي الجاحظ أي أهمية عن المعنى وإثباته الحسن للصياغة، لكن عقلية كالجاحظ لا يمكنها أن ترى المعنى مستقلا عن الصياغة أو حتى أن ترى الحسن للشعر في صياغته لا في أفكاره ومعانيه أو إعطاء القيمة للوزن ولتمييز الألفاظ وسهولة مخارجها. وبهذا فإن عبارة واحدة لا تكفي لتحديد المقصود من اللفظ والمعنى في نظره لأنه ذكر في نص آخر ما مفاده الحرص على الألفاظ والعناية بها فيقول:

---

(١) محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي، ص٢٧٤.

وينظر مصطفى ناصف، نظرية المعنى، ص٣٨-٣٩.

(٢) نعيم الحمصي، البلاغة بين اللفظ والمعنى، مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد ٢٤، ١٩٤٩، ص٤٤٩.

"فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه المتكلم دلا متعشقا، صار في قلبك أحلى ولصدرك أملى، والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت وحسب ما زخرفت"(١).

لكن لا يمكننا تفسير هذا النص على أنه متحيز لجانب اللفظ فقط، لأن فيه إشارة إلى أهمية المعنى وهذا يظهر في قوله (فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا) مما يعني أن المعنى أساس في العمل الأدبي، وليس كما ذهب بعضهم من عبارة الجاحظ هذه إلى أن الأدب أصبح "قائما على الزينة التي نضيفها إلى المعنى لا على المعنى"(٢).

وإذا حمل التفسير الظاهري لهذه النصوص تحيزا لجانب الألفاظ، فهناك نصوص للجاحظ تظهر تقديره للمعنى وعنايته به، فقد اشترط للكلام الذي يستحق اسم البلاغة أن "يسابق معناه لفظه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"(٣).

وذكر ما مفاده أن الألفاظ محددة متناهية أما المعاني فخلافها حيث يقول: "إن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"(٤).

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٢٥٤.

(٢) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٧٣.

(٣) الجاحظ، البيان، ج١، ص١١٥.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٧٦.

ويأتي الجاحظ بنص بيّن فيه قيمة اللفظ والمعنى، ودورهما معا في تحصيل أحسن الكلام فقال: "وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه... فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ومنزها عن الإخلال مصونا عن التكلف، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة"(١)، ومما سبق نتبين أن الجاحظ ينظر للفظ والمعنى على أنهما يتحدان في نسق يكشف تكامل العمل الأدبي، ويقدم ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) أحكامه في الشعر جودة ورداءة بناء على نظرته للفظ والمعنى دون إجلال المتقدم لتقدمه أو احتقار المتأخر لتأخره، وجاءت أقسام الشعر عنده أربعة هي:-

"**أولا:** ضرب حسن لفظه وجاد معناه...

ثانيا: ضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد فائدة في المعنى.

ثالثا: ضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه.

رابعا: ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه"(٢).

ويعد ابن قتيبة بهذا التقسيم المنطقي "أول ناقد عربي جعل للعقل دورا في النقد"(٣).

واعتمادا على ما ساقه ابن قتيبة في الحديث عن الضرب الذي حسن لفظه وحلا:

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٨٣.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٢٣-٢٦.

(٣) عبد الحميد، جيده، في قضايا النقد الأدبي، ص٨٩.

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

يتضح لنا أن حسن الألفاظ عنده عائد إلى شكلها الخارجي، وتكوينها الصوتي الموسيقي، وما بينها من تلازم في المخارج وحسن في الإيقاع، ويرى أن المعنى الجيد هو ما حوى حكمة أو فكرة فلسفية أو معنى أخلاقيا، وهذا ما يفسر إعجابه بقول الهذلي

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وينقلنا ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) إلى نظرة في النقد الأدبي العربي نأت عن الكلام العام عن اللفظ والمعنى واللغة الشعرية، إلى مرحلة تحليل لمكونات العمل الأدبي فقد تحدث ابن المعتز عن اللفظ والمعنى بشكل مؤسس على علم البديع، الذي نظر من خلاله إلى المعاني الحسنة أو الألفاظ الحسنة، وتظهر أمثلته وأحكامه عدم انتصاره للفظ ضد المعنى أو العكس لأن المهم عنده إبراز محاسن الكلام*.

وأظهر قدامة بن جعفر عناية باللفظ والمعنى، ظهرت في حديثه عما يحتاجه: في شرح جيد الشعر من رديئه وهو معرفة حد الشعر عما غير ذلك، وأوجز التمييز بين الشعر وغيره فرأى الشعر "قولا موزونا مقفى يدل على معنى"[١] ولم يقدم بهذا الحديث تعريفا للشعر كما ذهب بعضهم [٢] بل حدد أبرز ملامح التمايز بين الشعر وغيره مما يمكننا من الحكم على الشعر جودة أو رداءة.

---

* ابن المعتز، البديع، ص٥٩.

(١) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص٧.

(٢) ينظر: لانسون ومايه، النقد المنهجي، ص٦٥.

ويوضح قدامة قصده من المعنى فيقول: "قولنا (يدل على معنى) يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى، مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى"(١).

ومؤدى الكلام أن المعنى الشعري عنده ليس مستقلا بل هو مرتبط مع اللفظ والوزن والقافية، أي أن المعاني الشعرية لا تتشكل إلا من خلال علاقات بين هذه العناصر الثلاث، لكن هذه الرؤية تجاه الشعر حوت الكثير من المخالفات للطبيعة الشعرية، فقد جعلها كالقواعد الصماء، ولم ينظر إلى ما في الشعر من دلالات.

وتأثر بعض المحدثين بآرائه ومنهم حسين المرصفي إذ ظهر ذلك أثناء حديثه عن مكونات الشعر الأربع، وهي "اللفظ والمعنى والوزن وأشكال التلازم بينها"(٢).

ويدرك ابن رشيق القيرواني (ت٣٩٠هـ) ذلك التوازن الواجب بين اللفظ والمعنى وقيمتهما معا في العمل الأدبي، ورأى أن مكانة الواحد منهما للآخر كأهمية كل من الجسد والروح للآخر، وفي ذلك يقول: "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه... وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه"(٣)

ويوضح إيمانه في اتحاد الجانبين معا ولهذا يجيز أن يكون القالب هو اللفظ أو

---

(١) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص٦٤.

(٢) حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية، ج٢، ص٢٢٧.

(٣) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص١٠٣.

المعنى فيقول: "والقالب يكون وعاء كالذي تفرغ فيه الأواني ... ولهذا احتمل القـــالب أن يكون لفظا مرة ومعنى مرة"[١]

ويعتني أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) في هذا الموضوع بجانب اللفظ والشكل الخارجي، ويظهر فهمه لهذا الموضوع من خلال شرحه وتعليقه على الأبيات الشعرية.

ويرى العسكري أن محور البلاغة هو تحسين اللفظ لا المعنى، وجمال النصـــوص لا يتم إلا بالبلاغة الهادفة إلى إظهار جماليات الألفاظ، أما المعنى فليس هدفا جماليا فـــي نظره وفي هذا يقول: "من الدليل على أنّ مدار البلاغة على اللفظ، أن الخطـــب الرائعـــة والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الردئ من الألفاظ يقوم مقام الجيـــدة منها في الإفهام وإنما يدل حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعـــة، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه"[٢] .

ونظر العسكري للشعر على أنه صنعة في الألفاظ وليست في أي شـــيء غيرهـــا فرأى أن المعاني قائمة بنفسها وتحصيلها ليس محتاجا إلى جهد إذ يقـــول: "وأكـــثر هـــذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني، وتوخي صواب المعنى أحسن من توخي هـــذه الأمور في الألفاظ، ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة... ولو كان الأمـــر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدا كثيرا وأسقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا"[٣]

---

(١) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ص١٠٧.

(٢) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٨-٥٩.

ينظر نعيم الحمصي، البلاغة بين اللفظ والمعنى، مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد ٢٥، ١٩٥٠، دمشـــق، ص١٠٢.

ولكنه لا ينكر عمق العلاقة بينهما (اللفظ والمعنى) داخل العمل الأدبي حيث يتّصل كل منهما بالآخر فيقول "ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهرا والألفـــاظ إذا اجـــترت قسرا، ولا خيرا فيما أجيد لفظه إذا سَخُف معناه، ولا في غرابة المعنى إلا إذا شَرُف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد"(١)

ويعتني أبو هلال العسكري في المعنى ويبرز دوره في العمل الأدبي فيقـــول: "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبّر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابـــة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ لأن المدار بعْد على إصابة المعنى ولأن المعاني تحـــلّ من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكســـوة ومرتبـــة إحداهمـــا علـــى الأخرى معروفة"(٢)

وهذا يدل على أن ذلك التقديم للألفاظ، لم يمنع العسكري من إدراك الدور الأساسي الذي يقوم به اللفظ والمعنى لدى اجتماعهما في خير مظهر.

واعتنى عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـــ) باللفظ والمعنى، فكل ما قدمـــــه مـــن عبارات ونصوص حول اللفظ والمعنى لا يمكن تأويلها بأنها تخدم واحدا منهما، بل هـــي في خدمة نظرية النظم التي انتقلت (باللفظ والمعنى) إلى دائرة جديدة وفهم جديد، فـــهي تقوم أساسا على عدم المفاضلة بين الألفاظ المفردة دون اعتبار النظم والسياق، وفي ذلـــك يقول: "إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلـــم مفـــردة

---

(١) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص ٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨.

وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[١].

ومعنى قوله هذا أن جمال العبارات عائد إلى "حسن أداء الكلمات لمعانيها وما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب"[٢]، وهذا الفهم عائد بالنسبة له لفهمه للمفردات، فهو لا يرى معنى قائما للألفاظ بحد ذاتها بل ينظر لها على أساس أنها إشارة إلى موضع أو اصطلاح لشئ ما، لا تحمل حقيقة جوهرة فيقول " إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد"[٣]

وهذا يعني أن العلاقة بين الدال والمدلول عنده اعتباطية "فالألفاظ المفردة عنده هي مجرد علامات اصطلاحية للإشارة إلى شئ ما، وليست للدلالة عن حقيقة هذا الشيء"[٤]*

وتكتسب الألفاظ أهميتها من وضعها الصياغي داخل الجملة وبهذا تكون الجملة التعبيرية قائمة عنده على مستويين: "المستوى الشكلي السطحي حيث تنتظم الألفاظ المفردة بشكل من الأشكال، ومستوى داخلي عميق حيث تتشكل المعاني من خلال العلاقات الداخلية للغة"[٥]

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٤٨.

(٢) أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص٣٥٨.

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٩٧.

ينظر: يحيى بن حمزة العلوي، الطراز، ص١٥٠-١٥٢.

(٤) محمد عشماوي، قضايا النقد الأدبي المعاصر، ص٣٠٣.

* في الرد على اعتباطية الدال بالمدلول ينظر: ابن جني، الخصائص ج١، ص٤٤-٤٦ وإبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ ص٦٤-٦٧

(٥) عبد الحميد جيده، في قضايا النقد الأدبي عند العرب، ص١٥٠

وبهذا لا تتفاضل الألفاظ في ذاتها إلا من خلال النظم: "بأنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر"(١)

والنظم عنده للمعاني الذهنية المتشكلة أولا، ثم يأتي اللفظ تباعا إذ "لا يُتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"(٢)

واعتنى الجرجاني باللفظ وبيّن فضله حيث قال "إن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه وإنه إذا عدم الحسن في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة"(٣)

وتجلت عنايته باللفظ في أسرار البلاغة في مواضع عدة، حيث اعترف بأهمية اللفظ ودوره في بلاغة القول وجماله فيقول: "وههنا أقسام قد يتوهم في بدء الفكرة وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجي فيه العقل النفس ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك"(٤)

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٣

(٣) المصدر نفسه، ص٢٥٦.

(٤) عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٥.

وأراد الجرجاني من عرضه للفظ والمعنى أن يوضح موضع جمال النصوص ومقياس تفاضلها بين بعضها "ولم يرد بها ترجيح جانب المعنى على جانب اللفظ، ولم يدع بها الأدباء إلى الانصراف عن جمال الصياغة لأن هذه الصياغة هي التي ترفع أسلوبا على أسلوب"[١]

اللفظ والمعنى عند ابن خلدون

ويعقد ابن خلدون فصلا بعنوان "صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لافي المعاني"[٢].

ويظهر هذا العنوان أن ابن خلدون رجح اللفظ على المعنى ولم يقتصر على دور اللفظ للنظم والشعر فقط بل تعداها إلى النثر، فتراه يقول تحت ذلك العنوان: "اعلم أن صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي (أي الألفاظ) أصل"[٣].

ويحتج لهذا الرأي بحجة تعيدنا إلى النقطة المحورية في فكره وهذه الحجة مفادها أن تحصيل ملكة اللغة يتم عبر تكرار الألفاظ لا المعاني، "فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله وجريه على لسانه"[٤].

---

(١) أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص٣٦٠.

وينظر محمد عابد الجابري، اللفظ والمعنى في البيان العربي، مجلة فصول، مجلد ٦، ع١، ١٩٨٥ ص٤١.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣٠٢

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٠٢.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٠٢.

ويلتقي ابن خلدون صراحة مع الجاحظ في العبارة التي عد فيها المعاني مطروحة في الطرقات، والتمايز للألفاظ وحسن استخدامها فيقول: "والذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ، وأما المعاني فهي في الضمائر (أي الذهن والفكر) وأيضا فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طلوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى صناعة"(١).

وكأني أراه بآخر عبارة مقتربا في لفظة الصناعة من عملية النظم وحسن السبك أي يقترب من فكر الجرجاني في التركيز والعناية بتركيب الكلام وتأليفه الذي لا يتم عند كليهما إلا من خلال الألفاظ.

فيقول: "وتأليف الكلام للعبارة عنها (أي المعاني) هو المحتاج للصناعة"(٢).

فالاثنان (ابن خلدون والجرجاني) يقيمان وزنا للنظم وليس الفارق بينهما تفضيل أحدهما للفظ على المعنى أو العكس بل الفكرة في حديثهما: أيهما أسبق إلى الفكر الألفاظ أم المعاني.

وجاء تأليف الكلام عنده لتشكيل قوالب المعاني التي بمقدار جودتها تتفاضل الأساليب، "وهو (أي تأليف الكلام) بمثابة القوالب للمعاني، فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، والماء واحد في نفسه، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج ٤، ص ١٣٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٠٢.

تطبيقه على المقاصد"[١]، فلا يتم كمال المعنى إلا بجودة اختيار اللفظ، وفي هـــذا يقــول صاحب المصباح: "لا بد في تكميل الفصاحة من إبانة المعنى باللفظ المختار"[٢]، ولم يغفل ابن خلدون عن المعنى وأثره في النصوص حتى أنه عدّ سرّ الكلام فـــي معنـــاه، ورأى الكلام بلا معنى كالجسد الميت، أي بلا روح فقال: "اعلم أن الكلام الـــذي هـــو العبـــارة والخطاب إنما سره وروحه في إفادة المعنى"، وأمّا إذا كان مهملا فهو كالموات الـــذي لا عبرة به"[٣].

ورأيُ ابن خلدون هذا يبيّن أنه لا يمكننا الفصل بين اللفظ والمعنى بيـــن الشـــكل والمضمون بين الجسد والروح، فعلى اللفظ أن يأتي موافقا للمعنى، وإن أي تنافر بينـــهما يؤدي إلى تفكك العمل الفني والقضاء على قيمهِ الجمالية.

وبهذا لا يمكننا إغفال أهمية واحد من اللفظ والمعنى أو اللفظ والفكر، فنحن نفكـــر بواسطة اللغة وألفاظها، ونعبّر عن أفكارنا بواسطتها ولا يمكننا بحالٍ من الأحوال تصـــوّر ذلك التفكير القائم على الفصل التام بينهما، فلا نتصور لفظاً دون معنى أو معنى دون لفظ مما يعني أن الإنسان "لا يمكن أن يفكرَ بدون لغة أيّاً كانت هذه اللغة، وليس هناك أدنـــى شك بأن التفكير في أغلب الحالات يقتضي استعمال اللغة"[٤]، فعلاقة اللغة بالفكر علاقـــة وطيدة كأنهما وجهان لعملةٍ واحدة، وفي هذا تحقيقٌ لمفهوم اللغة ووظيفتها الأساسية فـــي نقل الأفكار وتحقيق التواصل البشري.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج ٤، ص ١٣٠٢، ١٣٠٣.

(٢) بدر الدين الأندلسي، المصباح في المعاني والبيان والبديع، ص ٧٦.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ج ٤، ص ١٣٠٧.

(٤) أحمد حماد، العلاقة بين اللغة والفكر، ص ٢١.

الطبع والصنعة عند النقاد القدماء

شغلت مسألة الطبع والصنعة حيزا كبيرا في البلاغة العربية، والملاحظ على هذه القضية: بعض الغموض الذي يكتنف المصطلحين، وليس السبب في هذا تقصير من القدماء أو المحدثين "لا نعتقد أن المدارس الأدبية والنقدية اليوم أوفر حظا في الإحاطة بهذا المفهوم من القدماء على بعد العهد وتطور العلم"(١)، بل السبب في غموض المصطلحين يرجع إلى سبب آخر مفاده: أن الأحكام التي أُطلقها القدماء على النظم أو النثر في كونه مطبوعا أو مصنوعا كانت أحكاما انطباعية خالية من القواعد الحاسمة الجازمة للفصل بين حدود الطبع والصنعة مما أضاف شيئا من الغموض على المفهومين.

وجاءت معظم تعاريف علمائنا لتقول: إن الطبع هو السجية والجبلة التي طبع الإنسان عليها، والصنعة من الصناعة والحرفة، ولا يبعد هذان المعنيان عن فهم علماء البلاغة العربية فهم "يريدون بالأدب المطبوع ما صدر عن فطرة سليمة وجاء عفوا دون تفكير أو تعمل لمعانيه وألفاظه وهو بذلك هبة من الله تعالى"(٢).

وقد اعتنى الجاحظ (ت٢٥٠هـ) بتوضيح مفهوم الطبع في غير موضع من مؤلفاته التي ورد فيها أن الطبع غريزة في الإنسان واستعداد جبلي أودعه الله فيمن شاء من عباده، وظهر هذا بشكل بارز في ثنايا حديثه عن الشعر وأسباب كثرته عند قوم دون غيرهم فقال: "وثقيف أهل دار ناهيك بها خصبا وطيبا، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك

---

(١) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٢١.

(٢) علي محمد حسن العماري، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي ص٥٢.

القليل يدل على طبع في الشعر عجيب، وليس ذلك من قبل رداءة الغـــذاء ولا مـــن قلـــة الشاغل والغنى عن الناس، وإنما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم مـــن الحظـــوظ والغرائـــز والبلاد والأعراق"[١].

وقدّم مقارنة بين المطبوع والمصنوع وضح فيها أن المطبوع ما سارت الكلمـــات معه بسهولة دون تعنت ولا رشح جبين، فالمطبوعون يأتيهم المعنى "سهوا ورهوا وتنثـــال عليهم الألفاظ انثيالا" [٢]، بينما يحاول المتكلف "قهر الكلام واغتصاب الألفاظ"[٣] ذلـــك لأن المتكلف يحمل نفسه مالا طاقة لها به أي الأمر عنده ليس غريزة ولا طبعا.

ولابن قتيبة الدينوري رأي في المتكلف والمطبوع من الشعر والنظم، يدور جلـــه على اعتبار المتكلف من القول هو ما فيه تنقيح وإعادة نظر بعد صـــدوره، فـــهو ليـــس مطبوعا أي لم يأت محسنا من تلقاء نفسه بل عمل مؤلفه على تحسينه وتنميقـــه فيقـــول: "فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش وأعـــاد فيـــه النظـــر بعـــد النظر"[٤].

وألمح ابن قتيبة (ت٢٧٦هـــ) إلى أن الشاعر إذا ذكر شعرا في موضـــع محبـــب لنفسه جاء مطبوعا، أما إذا غصب عليه وفرض فرضا جاء متكلفا، وضرب مثلا علـــى

---

(١) الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص٣٨٠-٣٨١.

(٢) الجاحظ، البيان والتبين، ج٢، ص١٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٣.

(٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٣٣.

ذلك مدائح الكميت لبني أمية وبني أبي طالب فقال إنه: "كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى، وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبين"(١).

وما يصح على الشعر في (الطبع والصنعة) يصح على النثر "وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ويستصعب فيها ريضه، وكذلك الكلام المنثور من الرسائل والمقامات... ولا يعرف لذلك سبب، إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم"(٢).

وقدم القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ) رأيا في المطبوع من الشعر أثناء تعريفه للشعر حيث قال: "الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه"(٣).

ويقيم بهذا التعريف وزنا كبيرا للطبع ويجعله عنصرا أوليا في الشاعرية "وهو يستخدم الطبع بمعنى كلمة الموهبة التي نستخدمها اليوم أو الملكة"(٤).

وقدم العسكري (ت٣٩٥هـ) تعريفا للمتكلف فقال هو: "طلب الشيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه بالسهولة، فالكلام اذا جمع وطلب بتعب وجهد، وتنولت ألفاظه من بعد فهو متكلف"(٥).

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٥.

(٣) القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص١٥.

(٤) محي الدين صبحي، المختار من الوساطة، ص٢٠١.

(٥) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص٤٤.

وجعل سوء الصنعة فسادا وقبحا في التعامل مع أقسام البلاغة ومحتوياتها فقال: "سوء الصنعة يتصرف على وجوه: منها سوء التقسيم وفساد التفسير، وقبح الاستعارة والتطبيق، وفساد النسج والسبك"(١).

وهذا يعني أنه عندما يتعامل أحدهم مع فنون البلاغة بجهد وعنت نتيجة انعدام الفطرة يأتي إنتاجه متكلفا وعباراته مصنوعة.

وبهذا نجد أن أبرز ما اتفق عليه البلاغيون هو:-

عد الكلام المطبوع: ما جاء عفو الخاطر دون رشح للجبين، وعد المصنوع من الكلام ما احتاج إلى إعادة نظر وتحسين بعد صدوره وأرى لذلك أسبابه: فلا ينتج الكلام المطبوع إلا صاحب الملكة السليمة الراغب في الحديث حول موضوع ما، أما من قهر على موضوع فإنه ولو امتلك ملكة فلن يأتي بالمطبوع.

أما ابن خلدون فقد تعامل مع قضية (المطبوع والمصنوع) بطريقة علمية مكنته من الإحاطة بالمصطلحين، ومحاولة كشف محتواهما، واتبع في ذلك مجموعة من الطرق، فقد قدم التعاريف، وضرب الأمثلة من (القرآن والشعر والنثر) وذكر تدرج المصطلحين تاريخيا، وأورد شروط الصنعة وأحكامها، ومرد ذلك عائد إلى تمثله غموض المصطلحين والحاجة إلى تبيانهما.

---

(١) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص٤٤.

الطبع والصنعة عند ابن خلدون

منذ بداية تعامله مع هذه القضية قدم لها التعريف الذي اصطلح عليه العلماء قبله فقال: "اعلم أنهم إذا قالوا الكلام المطبوع فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة ويدل به عليه دلالة وثيقة"(١).

وهكذا نهج طريق القدماء في تعريف المطبوع وعده الكلام الذي جاء على وتيرة الطبع والسجية، لكنه أضاف شيئا مهما للتعريف فقد رأى أن الكلام المطبوع لا بد فيه من تحصيل أصل الدلالة وغايتها (التي هي إيصال المقصود والإفادة من مدلوله) وهذا ما سيعتمد عليه في التمييز بين المطبوع والمصنوع.

ويظهر تعريف المطبوع على أنه ما جاء من الكلام على الطبع والسجية المستوى التوصيلي، لكنه لا يقتصر عليه إذ يلاحظ ابن خلدون أنه يضاف إليه التحسين والتزيين فيقول: "ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجية التي له بالأصالة ضروب من التحسين والتزيين بعد كمال الإفادة، وكأنها تعطيها رونق الفصاحة"(٢)، وهكذا يظهر أن ضروب التحسين الجمالي لا تُخرج الكلام عن كونه مطبوعا وإنما تضيف إليه مستوى جماليا خاصا يزيد في الإفادة رونق الفصاحة.

٥٤٢٢٣٥١

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠٨.

ولم يترك أمر ضروب التحسين والتزيين دون توضيح فقد فصل القول فيها وذكر أنواعها فقال: "تنميق الأسجاع والموازنة بين جمل الكلام وتقسيمه بالأقسام المختلفة الأحكام والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه والمطابقة بين المتضادات ليقع التجانس بين الألفاظ والمعاني فيحصل للكلام رونق ولذة في الأسماع وحلاوة وجمال كلها زائدة على الإفادة"(١)

وبهذه العبارة يشير ابن خلدون إلى وظيفة أخرى للغة، فبالإضافة إلى المستوى التوصيلي ذكر المستوى الجمالي المتحصل من ضروب البلاغة المختلفة الناتج عن الانحرافات المعيارية للمستوى التوصيلي للغة.

وأدرك ابن خلدون أن هذه الأصناف البلاغية مندرجة تحت علم البديع فقال:

"وذلك بعد كمال الإفادة في أصل هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها"(٢).

وقدم أمثلة توضيحية لاستكمال صورة المطبوع، قدمها من رأس البلاغة العربية وهو القرآن الكريم فقال: "وهذه الصنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضع متعددة والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى"(٣)، ولم تعن كلمة الصنعة التي جاءت في هذا النص الكلام المصنوع، بل عنى بها القدرة على الإتيان بالشيء متقنا ومتوخيا ضروب الجمال البياني.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٣٠٩.

ويتدرج ابن خلدون تاريخيا مع هذه الظاهرة ويبين حالها في العصور الأدبية حيث جاءت في الجاهلي طبيعة دون تكلف، وفي الإسلامي جاءت طبيعية ومتكلفة فيقول: "وكذا وقع كلام الجاهلية منه لكن عفوا من غير قصد ولا تعمد ويقال إنه وقع في شعر زهير وأما الإسلاميون فوقع لهم عفوا وقصدا وأتوا منه بالعجائب وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس والبحتري ومسلم بن الوليد، فقد كانوا مولعين بالصنعة ويأتون منها بالعجيب"(١).

ويستمر بعدها بالأمثلة إلى أن يأتي على ذكر ابن المعتز الذي يراه قد "ختم علم البديع والصناعة أجمع"(٢)، وبهذا يتضح أن الصنعة وجودتها مرتبطة بالبديع ومقدار احتواء الكلام عليه.

ويأتي بعدها على ذكر المصنوع فيقول: "وأما المصنوع فكثير من لدن بشار ثم حبيب وطبقتهما، ثم ابن المعتز خاتم الصنعة... واختلفت اصطلاحاتهم في ألقابها وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة، على أنها غير داخلة في الإفادة، وإنما هي تعطي التحسين والرونق"(٣).

وهذا يظهر أن الكلام الذي يتضمن فائدة وتحسينا يعد مطبوعا بينما يعد مصنوعا عندما ينتظمه التحسين الخالي من الفائدة، ويكشف لنا عن الشروط التي تجعل صنعة البديع مقبولة فيراها:-

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣١٠.

أولها: "أن تقع من غير تكلف ولا اكتراث فيما يقصد منها، وأما العفو فلا كلام فيه، لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام فتخل بالإفادة من أصلها وتذهب بالبلاغة رأسا ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات"(١).

ثانيها: الإقلال وعدم الإكثار فقال: "ثم من شروط استعمالها عندهم الإقلال منها... والإكثار منها عيب"(٢).

وبهذا يتضح أن نظرته للصنعة لا تجعل الكلام ساقطا مرذولا، إنما يسقطه الإكثار منها، فالأديب الذي يكثر ويثقل نصه بفنون البديع يزري أدبه ويذهب ماءه، والذي يخفي صنعته ويتطلف بها يأتي أدبه مقبولا.

وعلى الرغم من أن مجمل أمثلته في المطبوع والمصنوع جاءت على الشعر والشعراء إلا أنه لم يغفل المنثور من الكلام وما حدث به، فقال: "وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنثور في الجاهلية والإسلام، كان أولا مرسلا، معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه... حتى نبغ ابراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه، فتعاطى الصنعة والتقفية وأتى من ذلك بالعجب"(٣).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣١٠،
ينظر في التعليق على النص، محمد عيد، في اللغة ودراستها، ص٤١.
(٢) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣١١.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص١٣١١.

وألمح في نهاية حديثه عن سبب وجود المصنوع من الكلام، ورآه في العجم والاختلاط بهم، فذكر ما حدث مع إبراهيم بن هلال من الصنعة في النثر فقال: "إنما حمله عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة الخلافة المنفقة لسوق البلاغة، ثم انتشرت الصناعة بعده في منثور المتأخرين ونسي عهد الترسل وتشابهت السلطانيات* بالإخوانيات... ، وهذا كله يدل على أن الكلام المصنوع بالمعاناة والتكلف قاصر عن المطبوع لقلة الاكتراث فيه بأصل البلاغة"(١).

وهذه السجية التي يطالب بها علماؤنا ليست قصرا على لون من ألوان البلاغة دون غيرها بل هي للبلاغة كلها لأن البلاغة "كسائر الفنون طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة، فمن حاول أن ينالها بإعداد الآلة، وإدمان المزاولة وطول العلاج، وهو لا يجد أصلها في فطرته، أضاع جهده ووقته فيما لا رجع منه ولا طائل فيه"(٢).

وابن خلدون برأيه هذا يعيدنا إلى رأيه في الملكة حيث رأى فرقا بين من ينطق على سجيته وطبعه ومن يتعلمها ويكتسبها اكتسابا، وهكذا البلاغة فمن نطقها على غريزتها جاءت مطبوعة ومن حاول تعلمها من قواعدها جاءت معه متكلفة مبتذلة، مع عدم نكرانه الدراسة ودورها في صقل الغريزة لكن "حبك الشيء ليس دليلا على قوة استعدادك له" (٣).

---

* أي تشابهت الرسائل الديوانية الرسمية بالرسائل الإخوانية.

(١) ابن خلدون، المقدمة، ج٤، ص١٣١١.

(٢) أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ص١١.

(٣) أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي، ص١٦٤.

الخاتمة

أظهر هذا البحث أن ابن خلدون كان أشبه بموسوعة لعصره، فقد استطاع الإفادة من الأنظار السابقة عليه وتوظيفها في تأسيس منهجي يُغني اللغة العربية بما يفتح فيها من الآفاق المستشرفة لأبعاد الظاهرة اللغوية.

فقد أوضح أن النحو علم مستنبط من مجاري كلام العرب مؤيدا الأنظار النحوية في ذلك الوقت، واستشرف هذا القانون بالبيان عن علاقة النحو بالدلالة وفق نظرية العلاقات، وتلتقي الأنظار اللسانية معه في هذا الأفق الذي يبدأ درس الظاهرة اللغوية من الدلالة إلى الشكل.

وبيّن أن الإعراب هو التغير الحادث على أواخر الكلمات مظهرا دور نظرية العلاقات في الربط الإسنادي بين عناصر الظاهرة، وكشف عن أساليب إيصال المعنى مثل: علاقة الإعراب التي عدّها ملحظ تفضيل للغة العربية على غيرها من اللغات وبين دور جملة القرائن في إيصال المعنى مما يعطي اللغة العربية سعة في الاستعمال وتفاوتا في طبقات الكلام حسنا وقبحا.

وعرّف اللغة من وجهة اجتماعية فبين أنها وسيلة الإنسان في التعبير عن المقاصد، وعرض للعنصر المسؤول عن إنتاج المنظومة الكلامية وهو اللسان الذي يتولى إنتاج اللغة وفق عنصري القصد والاختيار وتبين اصطلاحية اللغة، وفرق بين علم اللغة وفقه اللغة حيث عدّ علم اللغة علما بالمعاجم على اختلاف أنواعها، ودرّس المستويات الدلالية التي تنتظمها، ونظر إلى المؤلفات المتخصصة في علاج قضايا

خاصة كالمشترك اللفظي أو المتداول من الألفاظ على أنها دخلت في دائرة فقه اللغة فالفرق بين علم اللغة وفقه اللغة كالفرق بين العام والخاص.

وأغنى البحث الصوتي بملاحظاته معرفا الصوت وكاشفا ملامح تمايزه من الحرف، وموضحا أعضاء الجهاز النطقي، وتوصل إلى اختلاف طبيعة النطق بالصوت الواحد في ضوء ما يجاوره من حروف.

وجاء حديثه عن الملكة متفردا ومتميزا عن غيره، إذا استطاع أن يؤسس لها تأسيسا يكشف عن وعي معرفي بأسرارها وطرق تحصيلها، واتضح عنده أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال عبر سياق اجتماعي يراعي المحيط الذي يولد فيه النص ونظرية التلقي.

وجاء حديثه عن قضية اللفظ والمعنى توضيحا للتماسك النصي الذي يصلهما وصلا ويكفل جمالية البنى في تشكيلها الكلي.

ونظر لثنائية الطبع والصنعة نظرة تستثمر جماليات الأسلوب في الإفادة من المحسنات وفق القدر المطلوب الموافق للمعنى المراد.

- ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد النحوي (ت٥٧٧هـ).

- الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة، ط٢، ١م، سعيد الأفغاني، دار الفكر بيروت - لبنان، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، ط٤، ٢م، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٠٨هـ-١٩٦١م.

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ط٣، ١م، إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.

- الأنصاري، أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت (ت٢١٦هـ)، النوادر في اللغة، ط١ ١م سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، المطبعة الكاثوليكية للآباء المرسلين اليسوعين، بيروت - لبنان، ١٨٩٤م.

- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ)، إعجاز القرآن، ط١، ١م محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت - لبنان، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

- بدر الدين الأندلسي، أبو عبدالله عمر بن جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك (ت٦٨٦هـ)، المصباح في علم المعاني والبيان والبديع، ط١، ١م، المطبعة الخيرية بدون تاريخ.

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت٤٣٠هـ)، فقه اللغة وأسرار العربية، ط١، ١م، ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٥٠هـ):

- البيان والتبين، ط٢، ٤م، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، مكتبة المثنى بغداد، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

- الحيوان، ط١، ٧م، عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر، ١٣٥٦هـ-١٩٣٨م.

- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧١هـ):

- أسرار البلاغة، ط١، ١م، هـ. ريتر، مطبعة وزارة المعارف، إستانبول، ١٩٥٤م.

- دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط٢، ١م، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت لبنان، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

- الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز (ت ٣٩٢هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ط١، ١م، أحمد عارف الزين، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة مصر، - ١٩٥ م.

- الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف (ت ٨١٦هـ)، التعريفات (معجم فلسفي منطقي صوفي فقهي لغوي نحوي)، ط١، ١م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر ١٣٢١هـ.

- ابن الجزري، الحافظ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت٧٣٣هـ)، النشر في القراءات العشر، بدون ط، ٢م، علي محمد الضباع، دار الفكر للطباعة والنشر مصر، بدون تاريخ.

- الجمحي، محمد بن سلام (ت٢٣١هـ)، طبقات الشعراء، ط١، ١م، اللجنة الجامعية لنشر التراث اللغوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ١٩٦٨م.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ):

- الخصائص، ط١، ٣م، محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.

- سر صناعة الإعراب، ط١، ٢م، محمد حسن محمد حسن اسماعيل وأحمد رشدي شحاته، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

- الحطاب، محمد بن محمد الرعيني ، الكواكب الدرية، ط١، ٢م، شرح محمد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل من أعيان القرن الثالث عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف الغرناطي النحوي (ت٧٤٥هـ):

- البحر المحيط في التفسير، ط ١ ، ١١م، محمد بن يوسف، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

- النهر الماد من البحر المحيط، ط١، ٦م، عمر الأسعد، دار الجيل، بيروت - لبنان ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

- أبو حيان التوحيدي (ت٤٠٠هـ)، الإمتاع والمؤانسة، ط١، ٣م، أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - مصر، ١٩٤٤م.

- ابن الخشاب، أبو محمد عبد الله بن أحمد (ت ٥٦٧هـ)، المرتجل في شرح الجمل، ط١، ١م، علي حيدر، دار الحكمة، دمشق - سوريا، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٣٨٨هـ)، بيان إعجاز القرآن، ط١، ١م، تعليق عبدالله الصديق، مطبعة دار التأليف، مصر، ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م.

- الخفاجي، أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الحلبي (ت ٤٦٦هـ) ط١، ١م عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر ١٣٨٢هـ -١٩٥٢م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ):

- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ط١، ١م، محمد بن تاويت الطنجي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - مصر، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.

- المقدمة، ط١، ٤م، علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م.

- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ت ٣٢١هـ)، جمهرة اللغة، ط١، ٤م، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٣٤٥هـ.

- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد أبو الفضل (ت ٥٠٢هـ) المفردات في غريب القرآن، ط١، ١م، المطبعة اليمنية مصطفى البابي الحلبي وأخويه، مصر، ١٩٦١م.

- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت٣٧٩هـ)، طبقات النحويين واللغويين، ط١، ١م، محمد أبو الفضل ابراهيم، محمد سامي أمين الخانجي الكتبي مصر، ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م.

- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق (ت ٣٣٧هـ)، الإيضاح في علل النحو، ط٣، ١م، مازن المبارك، مكتبة دار العروبة، مصر، ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م.

- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة ط٣، ٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٥م.

- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي (ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم ط١، ١م، عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، الكتاب، ط١، ٥م، إميل بديع يعقوب منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبدالله (ت ٣٦٨هـ)، أخبار النحويين البصريين، ط١، ١م، فريدس كونكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت - لبنان، ١٩٣٦م.

- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبدالله (ت٤٢٨هـ)، رسالة أسباب حدوث الحروف، ط١، ١م، محمد حسان الطيان، يحيى علم، دار الفكر، دمشق - سوريا ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين بن أبي بكر (ت ٩١١هـ):

- الأشباه والنظائر في النحو، ط١، ١م، محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية صيدا - بيروت، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ط١، ٢م، محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بدون تاريخ.

- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ط٢، ٧م، عبد السلام هارون، وعبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٤هـ-١٩٧٥م.

- الشيباني، أبو عمر الشيباني (ت٢٠٦هـ)، الجيم، ط١، ٣م، عبد الكريم العزباوي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة - مصر، ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤م.

- أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي الحلبي (ت ٣٥١هـ)، مراتب النحويين، ط١، ١م، محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها الفجالة - القاهرة ١٣٧٥هـ-١٩٩٥م.

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت ٣٩٥هـ)، الصناعتين الكتابة والشعر، ط١، ١م، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.

- ابن عصفور، علي بن مؤمن الإشبيلي (ت ٦٦٩هـ):

- المقرب، ط١، ٢م، أحمد عبد الستار الجواري عبدالله الجبوري، مطبعة العاني بغداد، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

- الممتع، ط١، ١م، فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦م.

- العكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين ، (ت ٦١٦هـ)، مسائل في النحو، ط٢ ١م، محمد خير الحلواني، دار المأمون للتراث، دمشق - سوريا، بدون تاريخ.

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)، كتاب الأربعين في أصول الدين، ط١، ١م، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت - لبنان، ١٩٧٨م.

- الفارابي، أبو نصر (ت٣٣٩هـ):

- الحروف، ط١، ١م، محسن مجدي، دار المشرق، بيروت ١٩٦٩م.

- رسائل الفارابي، التنبيه على سبيل السعادة، ط١، ١م، جعفر آل ياسين، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٨٥م.

- ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ):

- الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ط١، ١م، أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

- معجم مقاييس اللغة، ط١، ٢م، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٩٩٩م.

- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، العين، ط١، ٧م مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م.

- الفيروز أبادي، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ)، القاموس المحيط، ط١، ٤ أجزاء، دار الجيل، بيروت - لبنان، ١٩٥٢م.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ):

- تأويل مشكل القرآن، ط١، ١م، إعداد عمر محمد سعد عبد العزيز، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الأهرام، القاهرة - مصر، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.

- الشعر والشعراء، ط١، ١م، عمر الطباع، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

- قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، نقد الشعر، تصحيح س. أبو نيباكر بدون طبعة مطبعة بريل ليدن، بدون تاريخ.

- القرطاجني، أبو الحسن حازم (ت٦٨٤هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ط١، ١م، محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦م.

- القزويني، محمد بن عبد الرحمن الخطيب (ت ٧٣٩هـ)، تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، ط١، ١م، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.

- القيرواني، ابن رشيق أبو علي الحسن (ت ٣٩٠هـ)، العمدة، ط١، ١م، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة - مصر، ١٣٥٣هـ ١٩٣٤م.

- ابن مالك، أبو عبدالله جمال الدين محمد بن عبدالله (ت ٦٧٢هـ)، شرح التسهيل، ط١، ١م، عبد الرحمن سيد، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر ١٩٧٤م.

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)، المقتضب، ط١، ٤م، محمد عبد الخالق عظيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة، ١٣٨٢هـ- ١٩٦٣م.

- مسكوية، أبو علي أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ)، تهذيب الأخلاق، ط١، ١م قسطنطين زريق، الجامعة الأمريكية، لبنان - بيروت، ١٩٦٦م.

- ابن المعتز، أبو العباس عبدالله بن محمد بن العباس (ت ٢٩٦هـ)، البديع، ط١ ١م، نشر وتعليق أغناطيوس كراتشقوفسكي، لوزاك وشركاه، لندن، ١٩٣٥م.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت٧١١هـ)، لسان العرب، ط١، ٧م، دار صادر ، بيروت - لبنان ١٩٩٧م.

- ابن النديم، محمد بن إسحق (ت ٣٨٥هـ)، الفهرست، ط١، ١م، ناهد عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، قطر، ١٩٨٥م.

- ابن هشام، جمال الدين أبو محمد بن عبدالله (ت ٧٦١هـ).

- شرح شذور الذهب، ط٧، ١م، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٥٧م.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ط٦، ٢م، مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٩٨٥م.

- يحيى العلوي بن حمزة اليمني، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط١، دار الكتب الخديوية، القاهرة - مصر، ١٣٣٢هـ-١٩١٤م.

- ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي النحوي (ت ٦٤٣هـ)، شرح المفصل ط١، ١٠ أجزاء في مجلدين، موفق الدين بن يعيش، عالم الكتب، بيروت - لبنان -١٩٨م.

ب- المراجع الحديثة:-

- باللغة العربية

- إبراهيم أنيس:

- الأصوات اللغوية، ط٣، دار النهضة العربية، القاهرة - مصر، ١٩٦١م.

- دلالة الألفاظ، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ١٩٦٣م.

- محاضرات عن مستقبل اللغة العربية، ط١، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٩م.

- من أسرار اللغة، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ١٩٥٨م.

- إبراهيم السامرائي، فقه اللغة المقارن، ط١، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان ١٩٦٨م.

- إبراهيم مذكور وآخرون، المعجم الوسيط، ط٣، دار عمران، مصر، ١٩٨٥م.

- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، مصر، ١٩٥٩م.

- أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، ط٦، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٦م.

- أحمد حاطوم، كتاب الإعراب محاولة جديدة لاكتناه الظاهرة، ط٢، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت - لبنان، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، ط١، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٤٥م.

- أحمد حسن عرقوب، تطور لغة الطفل، ط١، مركز غنيم، عمان - الأردن ١٩٨٩م.

- أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي، ط١، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ١٩٩٨م.

- أحمد سليمان ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، ط١ ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية - مصر، ١٩٩٤م.

- أحمد الشايب، الأسلوب دراسة نقدية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ط١ المطبعة الفاروقية، الاسكندرية - مصر، ١٩٣٩م.

- أحمد عبد الرحمن حمّاد، العلاقة بين اللغة والفكر، بدون ط، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية - مصر، ١٩٨٥م.

- أحمد محمد قدور، اصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين ط١، دار الفكر، دمشق - سوريا، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ط١، عالم الكتب، القاهرة - مصر ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

- بسام بركة، علم الأصوات العام، أصوات اللغة العربية، ط١، مركز الإنماء القومي، بيروت - لبنان، ١٩٨٨م.

- بطرس البستاني، محيط المحيط (قاموس مطول للغة العربية)، ط٢، مكتبة لبنان بيروت - لبنان، ١٩٨٧م.

- بيرجستر سير، التطور النحوي للغة العربيـــة، ط١، مطبعـــة الســـماح، مصـــر ١٩٢٩م.

- تمام حسان:

- اللغة بين المعيارية والوصفية، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، ١٩٥٨م.

- اللغة العربية معناها ومبناها، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، ١٩٨٥م.

- توفيق محمد شاهين، علم اللغة العام، ط١، دار التضامن للطباعة، القاهرة، مصـــر ١٩٨٠م.

- جرمانوس فرحات، الإعراب عن لغة الأعراب، ط٢، مكتبـــة لبنـــان، بـــيروت لبنان، ١٩٩٦م.

- جورج كلاس، الألسنية ولغة الطفل العربي، ط١، بدون ناشر، بـــيروت، لبنـــان ١٩٨١م.

- حسن عون، اللغة والنحو دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة، ط١، مطبعة رويال مصر، ١٩٥٢م.

- حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربيـــة، ط٢، ٣م، عبـــد العزيـــز الدسوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩١م.

- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القـــرن الســـادس ط١، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ١٩٨١م.

- خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عنـــد العـــرب، ط١، منشـــورات دار الجاحظ للنشر، بغداد - العراق، ١٩٨٣م.

- خليل أحمد عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها (منهج وتطبيق)، ط١، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

- خليل أحمد عمايرة، سلمان العاني، في التحليل اللغوي، ط١، مكتبة المنار الزرقاء - الاردن، ١٩٨٧م.

- خير الدين الزركلي، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين في الجاهلية والإسلام والعصر الحاضر، ط١، المطبعة العربية، مصر ١٩٢٨م.

- داوود عبده، أبحاث في اللغة العربية، ط١، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، ١٩٧٣م.

- ريمون طحان، الألسنية العربية، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان ١٩٧٢م.

- سعد مصلوح، الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، ط١، دار البحوث العلمية، مطبعة حسان، الكويت، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

- سعيد الأفغاني، نظرات في اللغة عند ابن حزم، ط١، مطبعة جامعة دمشق سوريا، ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م.

- صالح الشماع، ارتقاء اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م.

- صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ط١، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان ١٩٧٨م.

- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ط٢، الهيئة المصرية العامة، مصر، ١٩٨٥م.

- عبد الإله نبهان، بحوث في اللغة والنحو والبلاغة، ط١، مطبعة اليمامة، حمص- سوريا ١٩٩٥م.

- عبد الحميد جيده، في قضايا النقد الأدبي عند العرب، ط١، منشورات دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس - لبنان، ١٩٨٥م.

- عبد الرحمن أيوب، محاضرات في اللغة، ط١، مطبعة المعارف، بغداد - العراق ١٩٦٦م.

- عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ط١، الدار الشامية بيروت، دار القلم - دمشق، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

- عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية نحو بديل السني في نقد الأدب، ط١ الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

- عبد الصبور شاهين، في علم اللغة العام، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

- عبد العزيز عتيق، تاريخ البلاغة العربية، بدون ط ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٩٧٠م.

- عبد العزيز مطر، علم اللغة وفقه اللغة تحديد وتوضيح، ط١، دار قطري بن الفجاءة، قطر، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

- عبد الغفار حامد هلال، أصوات اللغة العربية، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة ـ مصر ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ط١، دار الشروق، بيروت القاهرة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

- عبد القادر المهيري، أعلام وآثار من التراث اللغوي، ط١، دار الجنوب للنشر تونس، ١٩٩٣م.

- عبد المتعال الصعيدي، النحو الجديد، ط١، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٤٧م.

- عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي (دراسة تطبيقية)، ط١، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- عبده الراجحي، فصول في علم اللغة، بدون طبعة، دار المعرفة الجامعية، مصر ١٩٩٧م.

- عثمان أمين، في اللغة والفكر، ط١، معهد البحوث والدراسات العربية، مصر ١٩٦٦هـ-١٩٦٧م.

- عدنان بن ذريل، اللغة والدلالة آراء ونظريات، ط١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ـ سوريا، ١٩٨٠م.

- عصام نور الدين، علم الأصوات اللغوية (الفونانيكا)، ط١، دار الفكر اللبناني بيروت ـ لبنان، ١٩٩٢م.

- علي أبو المكارم، تقويم الفكر النحوي، ط١، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان ١٩٧٥م.

- علي البدري، بحوث المطابقة لمقتضى الحال، ط٢، مطبعة السعادة، القاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

- علي بو ملحم، في الأسلوب الأدبي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا - لبنان ١٩٦٨م.

- علي عبد الواحد وافي:

- علم اللغة، ط٥، مكتبة نهضة مصر، الفجالة - مصر، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.

- فقه اللغة، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م.

- علي محمد العماري، اللفظ والمعنى وأثرهما في تدوين البلاغة العربية، ط١ مكتبة وهبة، القاهرة - مصر، ١٩٩٩م.

- علي النجدي ناصف، من قضايا اللغة والنحو، ط١، مكتبة نهضة مصر، الفجالة ١٩٥٧م.

- عوض حمد القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره، ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض - المملكة العربية السعودية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

- فاخر عاقل، معجم علم النفس (إنكليزي - فرنسي - عربي)، ط١، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٩٧١م.

- فؤاد حنا ترزي، في أصول اللغة والنحو، ط٣، مطبعة دار الكتب، بيروت - لبنان ١٩٦٦م.

- فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ط٢، دار الفرقان للنشر والتوزيع عمان - الأردن، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

- كرم البستاني، البيان، ط٣، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان ١٩٦٢م.

- كريم زكي حسام الدين:

- أصول تراثية في علم اللغة، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ١٩٨٥م.

- علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، ط١، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة مصر، ١٩٧٠م.

- كمال بشر:

- دراسات في علم اللغة، ط١، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

- علم اللغة العام (الأصوات)، ط٥، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩م.

- لويس معلوف اليسوعي، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، طبعة جديدة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت - لبنان، ١٩٦٠م.

- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ط٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٢م.

- مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ط١، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق - سوريا، ١٩٨٨م.

- محمد إبراهيم البنا، الإعراب سمة العربية الفصحى، ط١، دار الإصلاح للطبع والنشر والتوزيع، الدمام - السعودية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

- محمد إبراهيم عبادة، الجملة العربية دراسة لغوية نحوية، ط١، منشأة المعارف الاسكندرية - مصر، ١٩٨٤م.

- محمد أحمد أبو الفرج، مقدمة لدراسة فقه اللغة، ط١، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، ١٩٦٦م.

- محمد الأنطاكي، الوجيز في فقه اللغة، ط٢، منشورات دار الشروق، حلب سوريا، ١٩٦٩م.

- محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، ط١، دار الكلام للنشر والتوزيع، الرباط - المغرب، ١٩٩٠م.

- محمد بركات أبو علي، فصول في البلاغة، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع عمان - الأردن، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، (مجموع المقالات التي كتبها افتتاحيات لجريدة البصائر)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بعد الحرب العالمية الثانية، بدون تاريخ.

- محمد حماسة عبد اللطيف:

- بناء الجملة العربية، ط١، دار الشروق، القاهرة - مصر، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، ط١، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٤م.

- محمد خالد عبد العزيز منصور، الوسيط في علم التجويد، ط١، دار النفائس عمان - الأردن، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- محمد خضر، فقه اللغة، ط١، الناشر المؤلف، بيروت - لبنان ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ط٢، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٧٩م.

- محمد السيد علي بلاسي، مدخل إلى البحث اللغوي، ط١، الدار الثقافية للنشر القاهرة - مصر، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- محمد صلاح الدين مصطفى، النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم، ط١ مؤسسة علي جراح الصباح، الكويت، -١٩٧م.

- محمد عبد الحميد أبو العزم، المسلك اللغوي ومهاراته، ط١، مطبعة مصر القاهرة، مصر، ١٣٧٢هـ-١٩٥٣م.

- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، ١٩٨٤م.

- محمد عبد المنعم الخفاجي، محمد فرهود، عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة - مصر، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

- محمد علي السراج، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب، ط١، دار الفكر دمشق سوريا، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

- محمد علي الخولي:

- الأصوات اللغوية، ط١، مكتبة الخريجي، الرياض - السعودية، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- مدخل إلى علم اللغة، ط١، دار الفلاح للنشر والتوزيع، صويلح - الأردن، ١٩٩٣م.

- محمد عيد:

- الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون، ط٢، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ١٩٧٩م.

- في اللغة ودراستها، ط١، عالم الكتب، القاهرة - مصر، ١٩٧٤م.

- محمد كامل جمعة، الأسلوب، ط١، مطبعة الفجالة الجديدة، مصر، ١٩٥٩م.

- محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية ط٣، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٩٦٨م.

- محمود أحمد السيد، الموجز في طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها، ط١، دار العودة، بيروت - لبنان، ١٩٨٠م.

- محمود السعران، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، ط٢، دار المعارف، الاسكندرية مصر، ١٩٦٣م.

- محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ط١، دار المعرفة الجامعية، الكويت ٢٠٠٠م.

- محمود فهمي حجازي:

- علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، ط١ مكتبة غريب، مصر، ١٩٩٢م.

- علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، ط١، دار غريب، القاهرة - مصر، ١٩٧٠م.

- محي الدين رمضان، في صوتيات العربية، ط١، مكتبة الرسالة الحديثة، ١٩٧٩م.

- محي الدين صبحي، المختار من الوساطة بين المتنبي وخصومه، ط١، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق - سوريا، ١٩٧٨م.

- مصطفى لطفي، اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، دراسة في علم اللغة الحديث، ط١، معهد الإنماء العربي، بيروت - لبنان، ١٩٧٦م.

- مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، ط١، دار القلم، القاهرة مصر، ١٩٦٥م.

- مهدي المخزومي:

- في النحو العربي، نقد وتوجيه، ط١، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٦٤م.

- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، وأولاده، مصر، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

- ميشال زكريا:

- الألسنية (علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام)، ط٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٩٨٣م.

- بحوث ألسنية عربية، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

- قضايا ألسنية تطبيقية (دراسة لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية) ط١، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٩٩٣م.

- الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ط٢، دار المعرفة الكويت، ١٩٧٨م.

- نهاد الموسى:

- في تاريخ العربية، أبحاث في الصورة التاريخية للنحو العربي، ط١، نشر الجامعة الأردنية، ١٩٧٦م.

- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان - الأردن، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

- نوال محمد عطية، علم النفس اللغوي، ط٣، المكتبة الأكاديمية، القاهرة مصر، ١٩٩٥م.

- ياسر الملاح، النظام النحوي في اللغة العربية، ط١، جامعة القدس، ١٩٨٣.

- الكتب المترجمة:

- إدوارد سابير، اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة سعيد الغانمي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت - الرباط، ١٩٩٣م.

- بيتر ب دنيس، إليوت بنشن، المنظومة الكلامية، دراسة في فيزياء وبيولوجيا اللغات الشفهية، ترجمة محي الدين حميدي، ط١، معهد الإنماء العربي، بيروت والهيئة القومية للبحث العلمي طرابلس - ليبيا، ١٩٩١م.

- بير جيرو، الأسلوبية، ترجمة منذر عياشي، ط٢، مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر، حلب - سوريا، ١٩٩٤م.

- جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، ط١، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٦٦م.

- جون ليونز، اللغة وعلم اللغة، ترجمة مصطفى التوني، ط١، دار النهضة العربية القاهرة - مصر، ١٩٨٨م.

- دافيد كريستل، التعريف بعلم اللغة، ترجمة حلمي خليل، ط٢، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٣م.

- غراهام هوف، الأسلوب والأسلوبية، ترجمة كاظم سعد الدين، كتب شهرية صادرة عن دار آفاق عربية، ع١، العراق، ١٩٨٥م.

- فردينان دي سوسير:

- فصول في علم اللغة العام، ترجمة أحمد نعيم الكراعين، ط١، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية - مصر، ١٩٨٢م.

- محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، ط١، دار نعمان للثقافة، جونيه - لبنان، ١٩٨٤م.

- فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ١٩٥٠م.

- لانسون ومايبه، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة محمد مندور، ط٣، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، ١٩٩٦م.

- مارك ريتشل، اكتساب اللغة، ترجمة كمال بكداش، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت - لبنان، ١٩٨٤م.

- ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، ط١، منشورات جامعة طرابلس كلية التربية، طرابلس - ليبيا، ١٩٧٣م.

- ميجل سجوان، العلم وثنائية اللغة، ترجمة إبراهيم القعيد ومحمد مجاهد محمد، ط١ عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود، الرياض - السعودية، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

- نوعم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة محمد فتيح، ط١، دار الفكر العربي، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

الرسائل الجامعية:

- إبراهيم خليل، السياق وأثره في الدرس اللغوي، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية عمان، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

- عبدالله عنبر، نظرية النظم عند العرب في ضوء مناهج التحليل اللساني، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٩١م.

ج- بحوث منشورة في:

دوائر المعارف:

- دائرة المعارف الإسلامية ١٣م، إبراهيم خورشيد، أحمد الشناوي وعبد الحميد يونس، نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي، ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.

- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي بن علي بن محمد التهانوي ت ١١٥٨هـ، ط١، ٤م، وضع حواشيه أحمد حسن بسبح، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

. الدوريات:

- أحمد عبد الرحيم السايح، اللغة العربية وفلسفة الإعـــراب فيـــها، مجلـــة العربـــي ع١٣٧، الكويت، ١٩٧٠م، ص٨٦.

- تمام حسان:

- أمن اللبس ووسائل الوصول إليه في اللغـــة العربيـــة، حوليـــات دار العلـــوم،ع٦٨ ١٩٦٩م، ص١٠.

- تحديد المعنى النحوي في غيبة العلامة الإعرابية، مجلة معهد اللغة العربية، جامعة أم القـــرى، ع١، مكـــة المكرمـــة - الســـعودية، (١٤٠٢-١٤٠٣) (١٩٨٣-١٩٨٤) ص٢١، ص٢٣.

- القرائن النحوية واطراح العامل والإعرابين التقديري والمحلي، مجلة اللسان العربـــي مجلد١١، ج١، الرباط - المغرب، ١٩٧٤م، ص٤٦.

- رمضان عبد التواب، قضية الإعراب في العربية الفصحى بين أيـــــدي الدارســـين مجلة المجلة، ع١١٤، السعودية، ١٩٦٦م، ص١٠٣.

- سالم علوي، ابن خلدون وعلوم اللسان العربي، حوليـــات جامعـــة الجزائـــر، ع٨ الجزائر، ١٩٩٤م، ص١٩٢.

- الطيب البكوش، العلاقات بين الألسن ومستوياتها في التراث، حوليـــات الجامعـــة التونسية، ع٣٦، تونس، ١٩٩٥م، ص١٤.

- عبد القادر المهيري، ابن خلدون وعلوم اللسان، حوليات الجامعة التونسية، ع٢٤ تونس، ١٩٨٥م، ص٩، ص ١٦.

- عزة آغا ملك، الأسلوبية من خلال اللسانية، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع٣٨ مركز الإنماء القومي، بيروت - باريس، ١٩٨٦م، ص٨٤.

- علي محمد النوري، السليقة اللغوية عند العرب، مجلة الدعوة الإسلامية، ع١٤ ليبيا، ١٤٢٧هـ- ١٩٩٧م، ص٢٢٧.

- كمال بشر:

- مظاهر التطور في اللغة العربية المعاصرة، مجلة المجلة، ع١١٤، السنة ١٠ السعودية، ١٩٩٦م، ص٤٨.

- محمد أمين أبو الرب، مفهوم علم اللغة عند ابن خلدون في ضوء الدراسات الحديثة، مجلة أفكار، ع٩٨، عمان - الأردن، ١٩٩٠م، ص٧.

- محمد صلاح الدين بكر:

- المعنى النحوي مفهومه ومكوناته، مجلة الحصاد، ع١، نيقوسيا - قبرص، ١٩٨١م ص١٤١ ، ص١٤٦.

- نظرة في قرينة الإعراب في الدراسات النحوية القديمة والحديثة، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، حولية (٥)، الرسالة العشرون، الكويت، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، ص٣٣.

- محمد عابد الجابري، اللفظ والمعنى في البيان العربي، مجلة فصـــول، مجلـد ٦ ع١، مصر، ١٩٨٥م، ص٤١.

- محمود إسماعيل صيني، الكتابة العربية وأثرها فـــي تكويـــن العـــادات اللغويـــة السليمة، مجلة كلية الآداب، ج٤، جامعة الرياض، ١٩٧٥هـــ-١٩٧٦م.

- نعيم الحمصي، البلاغة بين اللفظ والمعنى، مجلة المجمع العلمي العربي، مجلـــد ٢٤، دمشق، ١٩٤٩م، ص١٠٢، ص ٤٤٩.

Abstract

The Linguistic Views in Ibn Khaldoun's Introduction

By

Fairouz Husni Haroun

Supervisor

Dr. Abdullah Anbar

Ibn Khaldoun has composed various works on History, Sociology, Economics and Mathematics. He owned a comprehensive vast knowledge which motivated scholars to research this personality to comprehend its ways of thought. As aresult various research studies investigated Ibn Khaldoun's literature from an analytical, comparative and illustrative perspective.

Ibn Khaldoun's reputation rose at the social level in particular drawing the attention of the scholars to research his views in other fields. This thesis illustrates the linguistic views to place them in their position in the light of the modern linguistic views and studies the linguistic phenomenon from its various aspects.

This thesis is based on two main points:

3- He emphasised the idea of verbal competence concluding that it is abasic characteristic of the human self acquired by repetition and extensive practice. He also differentiated between linguistic competence and Arabic Grammar to reach the conclusion that Arabic Grammar doesnot form acondition for acquiring competence in the Arabic language.

4- He defined rhetoric as the correspondence of speech with what the situation requires. Ibn khaldoun also discovered the concept of style and it's variety in prose and poetry considering it the example to be embraced and followed.

5- He dealt with two issues which formed as subjects of concern for Arabic criticism for long:-

a) utterance and meaning: they both write in forming the base of the text.

b) Ibn Khaldoun highlighted the importance of instinctive style and determined the acceptable level of embellishment.